رواية

أهذا هو الحب

آراس حمي

أهذا هو الحب

رواية

آراس حمي

الإهداء:

إلى صديقتي ياسمين محجوب

الفصل الأول

مؤخرتي مقابل خاتم ذهب، كانت صفقة غريبة، غبية، متسرعة، فعلتها رغم أن ذلك يخالف ميولي الشخصية، ربما أحبها أكثر من اللازم، ولا أعلم بعد لم ولا كيف استعمر هذا الحب قلبي بهذه القوة المفاجأة، ربما أرى فيها شيئاً غامضاً يثير الجنون والحيرة، إذ أفقد عقلي كلما سمعتُ كلمةً بصوتها أو لمحتُ حركةً من حركاتها الأنثوية الملغمة بالجمال المجهول، لا لست شخصاً مجنوناً، أنا عاقل بل وحكيم، أرى ما خلف العالم والحياة والطبيعة والحب، لكنني أصبح شخصاً آخر معها، شخصاً لا يستطيع تكوين فكرة واحدة مرتبة، كما أنني مضيت أياماً أذبح بشعور النقص القذر وبقلق انتهاء العلاقة، حتى مضيت كالنائم نحو هذه الصفقة المنحرفة، رغم معرفتي بعدم حبها لي، وهذا لا يغير كثيراً من طبيعة ما حدث، الأهم أنني أحبها، الأهم هو شعوري أنا، أما الأغرب في قصتي هو أنني لا أريد هذا الحب إرادةً قوية رغم ممارستي له، أو هو يمارس علي دون أن يكون لي إرادة في ذلك، وها هو ذا الخاتم في جيبي يبحث عنها، إنه لها

حتى لو سرقته ومن ثم اختفت، سأتألم لذلك طبعاً لكن من جهة أخرى سأكون سعيداً لأني أكملت جزءً من واجباتي الحبية وتخلصت من عقدة النقص اللعينة، ثم لسوء الحظ أعرف جيداً أن لهذه العلاقة نهاية، كل شيء له نهاية، هذه بديهة وجودية، ليس لهذا السبب الوجودي فقط إنما لأنني فقير، عامل مضغوط وعاطل عن العمل، ليس لدي بيت، فالبيت الذي أسكن فيه لم أدفع إجاره منذ شهور، ومالك المنزل يطرق الباب عدة مرات في اليوم، لست جميلاً، جسدي مشعر، ضعيف، نحيف كأجساد جميع العمال، ليس لدي عضلات، ليس لدي سيارة ولا جوال ثمين ولا ماكينة حلاقة، لا يوجد مرآة في منزلي، أرى وجهي في زجاج محلات السوق، سريري يصدر الصرير مع كل حركة صغيرة مني، لا أستمتع بممارسة الجنس بسبب قلقي من إزعاج الجيران، الجدران عليها رطوبة، ليس لدي غسالة، ثيابي نتنة، أمضي عدة ساعات شاقة في الأسبوع وأنا أغسلها بيدي وقلبي يعوي باللعنات والشتائم، أكره حياتي كما تكره الحياة الفقراء الملعونين، أنا فاشل، فشلت كثيراً، لازلت أفشل، ليس لأني ناقص، ولا لأني مغرور بفشلي، حقاً لا أدري لم، ربما لأن العالم هكذا فقط، أو العالم المتاح صار محصوراً لعدد قليل من البشر، هذا ما أراه حولي، كلهم يلعنون كل شيء، يلعنون أنفسهم أيضاً، هم لا يفهمون كيف يسير العالم، لكن أنا

أفهم ورغم ذلك أنا مثلهم تماماً، كأن الفهم لا يجلب الحياة الحسنة، لا بالجوانب المادية ولا بالجوانب النفسية، نعم أنا تعيس أيضاً، لا أعيش الحياة، بل لا أعرف ما هي الحياة، إن كنت أعمل فأكون مثل الفأر الذي يدور في دائرة مغلقة وإن كنت عاطلاً عن العمل أكون مثل الفأر الذي يبحث عن قطعة خبز أو ينتشي لأنه يمتلك قطعة خبز كبيرة من أجل أسبوعه القادم أو يدمرني قلقي على الخبز الغائب، في كلتا الحالتين أنا فأر، لكنني وجدت قطعة خبز عجيبة، إنه الحب، حدث ذلك قبل ستة شهور، تحديداً بعدما توقف عملي فذهبت إلى المكتبة لأسرق الكتب، وهناك وجدت امرأة ملغمة بالجمال والأنوثة والإغواء، ثم بحركات تواصل عفوية تعرفنا على بعضنا وجلسنا نتناقش حول أصل الحياة، ليست حقيقية أو هي شبه مصطنعة، ولم تكن ذكية كثيراً، حتى إنها لا تفكر، هي تنقل الآراء التي سمعتها، ما جعلني أضحك بقوة في ذلك اللقاء أنها اقتبست آراء قديمة ماتت مع التطور الرهيب للعلوم على مدى القرون الأخيرة، لكن من جانب آخر كانت لذيذة وشهية كقطعة هامبرغر بعد جوع يوم كامل، أحببتها فجأةً، لم يتراكم في داخلي سيرتها التجريبية، ولم نمضِ معاً سوى ساعة واحدة بعد، كنت ضعيف القلب حينها، مهزوماً كقط مريض، وحيداً كجبل في صحراء قاحلة، فوقعت في الفخ، ثم مضينا كل يوم

نلتقي عدة ساعات في المكتبة نتحدث في كل شيء، من الأدب إلى الشعر إلى السياسة إلى الموت، من الشعوب إلى التاريخ إلى الطبيعة إلى النفس، كانت قارئة جيدة بعض الشيء ومنفتحة على كل شيء رغم كونها ضعيفة الفكر، ثم انتقلنا إلى الجانب الآخر من الحياة فمارسنا الذائقة والحب والجنس كل عدة أيام بذات القوة والشغف، مرات في بيتها الأنيق الكبير ومرات في بيتي، أقصد بيت صاحب البيت، إلى أن توقفنا فجأة نسأل عن طبيعة العقد الذي بيننا، كانت مندفعة نحو الحب كاندفاع الكائنات نحو الشهوات أما أنا فكنت قلقاً من الحب مثل جميع الفقراء الذين يعرفون أن حياتهم قذرة وضيقة أمام هكذا تجارب حياتية، لكننا في الأخير وقعنا على الحب، على الحب فقط، دون أن نفكر في مستقبل ذلك وهل سينتهي هذا الحب بمؤسسة أسرية تافهة أم بالصمت الثقيل للنهاية، لم نكن جديين حول ذلك ولم نشعر بعضنا بذلك، اعتبرتها مغامرة عابرة، قصيرة، مشبعة، وأظنها امتلكت النظرة ذاتها، ثم مضت الأيام ونحن نتعلق أكثر ببعضنا حتى بدأت تظهر المشاكل الروتينية المزعجة، مثل ساعة اللقاء أو تفاوت رغبة الجنس بيننا أو ضجر بعض المواضيع والنقاشات أو الاختلافات الطبيعة بين الذكر والأنثى أو المشاغل التي تعيق بعض ملذاتنا أو...إلخ، أما أهم مشكلة فهي نظرتي نحوها ونظرتها نحوي وتلك الجوانب السرية

التي لا نكشفها لبعضنا، تعلقت بها كما يتعلق القرد بغصن الشجرة رغم أن هذا الحب لا يروقني ولا أراها شريكة مناسبة أمشي معها نحو الموت، وهي أيضاً تعلقت بي أما نظرتها عني فأجهلها أو هي غير واضحة لي، لا أدري ماذا تريد، إنها تائهة، ضائعة، غائبة، متغيرة، لعوبة، غير مسؤولة، باردة بعض الشيء، مثلي تماماً أو صرنا نشبه بعضنا جداً، أما في الحب فأنا أعرف أنني أحبها ولكن لا يستطيع المرء أن يكون متأكداً من شيء خارج رغبته، لذا لا أدري تماماً إن كانت تحبني أم لا، أو إن كانت ترى الجانب العجيب في اللحظات التي تجمعنا أم لا، ولم أقف عند الجانب النظري فقط وذهبت أجري بعض التحقيقات والتجارب حتى أكتشف عما يجري في غرف قلبها، والغريب أنني أيضاً عجزت عن الوصول إلى الحقيقة الكاملة أو ربما لا توجد حقيقة في الحب، إذ في بعض الأحيان كانت تكشف لي حبها ثم يأتي موقف ليغير كمالية هذه الحقيقة، في الأخير وصلت إلى احتمالين، إما إنها تمثل الحب حتى تستمتع وتلهو أو إنها تمثل اللاحب حتى تنبهني إلى واجباتي والتزاماتي بالعلاقة ولأفكر بالمستقبل الذي بيننا، وهنا الفجوة الكبرى، فإن عشت على اعتبار إنها تحبني ثم اكتشفت أن الاحتمال الثاني هو الحقيقة ستدمرني الخيبة وإن عشت على اعتبار إنها لا تحبني ثم اكتشفت أن الاحتمال الأول هو الحقيقة ستدمرني الخيبة

أيضاً، إنها قضية جدلية مستحيلة الحل ومضحكة بعض الشيء، المضحك في الأمر إنه جانب رئيسي في وجودي ولن ينفع معه اللاكتراث واللامبالاة، وهذا ما دفعني أكثر في هوة هذا الجدل العقيم، قد يسأل أحدهم " لم لا تسألها عن ذلك وينتهي هذا العذاب"، سأقول له إن هذا أيضاً لم يفيد في شيء، بل سيفتح أبواب تأويلات لانهائية وجدالات أشقى وأعمق، إنها امرأة، أي ستوسع دائرة الجدل بشكل كبير إلى أن يختفي السؤال الأولي لأصبح لعبة بيد أهوائها، وهكذا لم أصل إلى نتيجة ومرت الأيام وتفاقم هذا الصراع الطاعن في داخلي ومعه بدأت الهواجس والشكوك والظنون والاضطرابات النفسية والفجوات الشعورية ولحظات النفور وضربات الواقع حتى صرت أكره هذه العلاقة لكنني في الوقت ذاته بقيت أحبها حباً فتاكاً، وهي أيضاً صارت تكره هذه العلاقة وفي الوقت ذاته تلاشى ذاك الحب في داخلها، هذا إن كان موجوداً، أنا شبه متأكد من ذلك لكن لا أفهم لم لا تزال معي، ربما لم تجد بعد لعبة أخرى، أنا أيضاً لو وجدت ما يدمر حبي لها فسأفعل ذلك فوراً، إذ مع دخولنا المرحلة الثانية من العلاقة بدأت أشعر بالنقص الحاد أمامها، حياتي تقيدني، أحياناً أعجز عن شراء الورود لها، أحياناً أتهرب من بعض الواجبات بطريقة واضحة، أحياناً لا ينتصب قضيبي لشدة شعوري بالاختلالات تجاه ما هي

عليه من حياة مادية جيدة وما أنا عليه من عجز وعوز وفقر، الأكثر تطرفاً بيننا هو أنها لم تساعدني على تجاوز هذه المشاعر، أحياناً كنت أشعر أنها تتعمد ذلك لأسباب ما، ربما لتشبع شعورها بالنقص أمام عبقريتي الفكرية، ربما لتشعر بسلطتها الأنثوية، ربما لتلهو بشكل ألذ، لا أدري لم بالتحديد، مع كل هذه الأسباب تحولت إلى وحش، لاعقلاني، حالم، كاره لنفسي، هارب من ظروف حياتي، مما جعلني بحاجة دائماً إلى حرارة جسدها وعناقها الدافئ، ففتح لها الباب أكثر لتتسلط ولتلعب بي أكثر، في حين ما أزال مغرماً بها بولع، يا لفجيعة هذا الحب، تحولت شيئاً فشيئاً إلى مجنون، مصروع، مخدور، مقذوف في الحياة من أجل قبلة واحدة منها، إلى أن اكتفيت من كل ذلك وبدأت أبحث عما يسترد لي قوتي وطاقتي أمامها، فكرت على مدى ساعات تفكيراً هوسياً مريضاً في حيلة، طريقة، خطة، حركة تعيد التوازن وإلا سأبقى هكذا إلى الأبد، ثم لم أجد سوى الصفقة التي تحدثت عنها في البداية، هرعت نحو إحدى محلات المجوهرات، كنت قبل عدة سنوات قد دخلت عليه مع صديق قام ببيع بعض المجوهرات، جلست معه وشرحت يأسي بملامح كئيبة وبدموع قهرية إلى أن طرح علي رغبته الغريبة فلم أفكر أكثر من دقيقة حتى أحسست بقضيبه في مؤخرتي في غرفته الخلفية، ثم وبمؤخرة ممزقة وبخاتم ذهب دنوت

نحو إحدى الحدائق لانتظر صديقي الذي أتصل بي لاهثاً بخبر أجهله بعد.

الفصل الثاني

أشعلت سيجارة وأنا أحلل ملامح صديقي، كان يتخبط في داخله، يهذي عن شيء ما، تحرك عدة حركات غريبة ثم تفوه قائلاً:

- حسناً سربست، لا أدري كيف سأقول لك ذلك لكن أنت صديقي ويجب أن أقف بجانبك وأساعدك بقدر المستطاع.

قمت من مكاني كمن عرف سر عظيماً عن الحياة، دخنت سيجارتي بشراهة حتى وصلت إلى منتصفها، نظرت إليه نظرات حكيمة، إنه يخفي شيئاً سيئاً عني ولديه الرغبة ليقولها لي لكن لا يدري كيف يبدأ وما هو الأسلوب المناسب لذلك، أدرت ظهري له ومشيت عدة خطوات بعيداً عن المقعد، نظرت نحو العشب وسحبت شهيقاً قوياً

- أهو خبر سيئ أم جيد؟ قله كيفما كان، أسمعك

سمعت صوته المهزوز وهو يبحث عن الكلمات المعبرة والواضحة

- للآسف سربست، ربما، لا أدري حقاً إن كان الخبر سيئاً أو جيداً، لكن يجب أن تعرف، أنت صديقي، كل شيء سيتغير، يجب فعل شيء ما

رميت السيجارة بعد أن أنهيتها، أحسست بدوار مفاجئ بسبب هذه السيجارة الثقيلة وفقر الدم، عدت إلى المقعد بخطوات مريضة

- هل أنت بخير

حركت رأسي وقلت

- دقيقة وأعود إلي

وضعت يدي على وجهي ورأسي المشوش لا يزال يدور كزوبعة ريح، كدت أقع في غيبوبة لكنني عدت بشكل تدريجي بعد أن رمى صديقي الماء على رأسي ووجهي

- هذه الجمجمة ثقيلة أكثر من حياتي، قل ما لديك

لم يتكلم، بقي صامتاً لكن وجهه كان يثرثر في وجهي ثرثرةً واضحة، حينها فقط فهمت كل شيء فهماً تاماً، قمت من مكاني ومشيت، صاح خلفي يقول

- في المساء تعال إلى الشاطئ، سننتظرك سربست، لا تنس

الفصل الثالث

مشيت عدة شوارع مزدحماً بضجة غير مفهومة، كنت أمشي واصطدم بالناس دون وعي، دون كينونة، غائباً عن العالم الخارجي والداخلي معاً، دخنت سجائر كثيرة، واحدة تلو الأخرى حتى كدت أقع مجدداً، في الأخير وجدتني أدور حول الحديقة التي رأيت فيها صديقي، فعدت وجلست على المقعد ذاته، فتحت القميص كمن سيختنق، تمددت أنظر إلى السماء والناس حولي يمشون مستغربين وضاحكين، لم أنتبه لذلك، كان فيَّ برودة حادة تجاه كل شيء، تجاهي أيضاً، لم أستعملني، غير موجود أنا، هكذا في غيهب الغياب، كنت جسداً مرمياً خارجي، أرضً غريبة، وطناً غائباً بعيداً، دون لغة، بيني وبين كينونتي جدار غليظ يمنع دم الحرية من التدفق في شرايين المسؤولية، يمنع السماء من كشف موهبة الوحدة، يمنع العقل من ممارسة الحكمة والنظر، بقيت هكذا لزمن طويل ضمن نطاق ربع ساعة من الزمن الفيزيائي والبرودة العالية قد أجهزت على كياني حتى استيقظت مع طفلة وقفت بجانبي تنظر إلي بغرابة، ابتسمت لها فابتسمت لي ثم ذهبت نحو أمها، نهضت جالساً فأطبقت

علي ضحكة خلقت لتوها، فأطلقتها بقوة وسط الحديقة، الجميع نظروا إلي مع ملامح تعبر عن ردة فعل عن حدث غريب ومجنون، أنا أيضاً نظرت إلي ممثلاً رمي الذات وسط المجموعة، كنت سعيداً سعادةً فائقة كمن تحرر من السجن بعد قضاء ثلث عمره في الهباء، أحسست بأنني استعدت ذاتي من وحشٍ ذو أنياب طويلة وحادة، لقد أفلت من قبضة الحب، لم يعد فيَّ طاقة مجنونة تلهب حدسي وتفقدني عقلي، العالم تغير فجأة في نظري، صار واسعاً ومتاحاً لحيواتي الجديدة، صار جميلاً بعض الشيء، وهبني على حين فجأة موهبة أن أكون خفيفاً وسائلاً، لقد صرت وحيداً، الآن يمكنني أن أحس بعظمة الوحدة وأن أفكر بشكل أعمق في وحدة الكون، أن تتحرك كينونتي في الزمن، عدت إلى الزمن الحقيقي، خارج تلك القصة الغبية مع تلك المرأة الغبية التي لا تهتم سوى بمظهرها الشخصي، يمكنني الآن أن أشتمها، يا للذة أن تشتم امرأة كنت غارقاً في مستنقع تفاصيلها، مخدوراً بماء فرجها، ميتاً في قبر قلبها، امرأة لا تستطيع أن ترى سذاجتها وأنت معها، امرأة تسحبك خلفها بسلاسل الحب، لقد تغير كل شيء والآن أنا سيد نفسي، ما أجمل صوت الحرية، ما أعظم لذة الحرية، الآن أنا حر، حر من امرأة كانت طاغية طغياناً ذكياً باسم الحب فصرت لها عبداً يعرف إنه عبد لكن لم يكن يرى احتمالات الممكنة لفعل التمرد

البريء، ولن أندم على سكوتي ذاك بعد أن تحررت منها فالغاية تحققت والحاضر تغير، الأهم ألا أكرر ذلك في المستقبل واحافظ على حريتي في وجه كل طغيان قادم، لكن من المزعج هذا الطغيان الممزوج بالحب، فهو يلطخ إحدى معجزات الذات ويجعل من المرء كارهاً للحب، على الطغيان أن يكون مجرداً من كل بقع الجمال احتراماً لبراءتنا، ربما لم يكن حباً، كان شكلاً من أشكال التفريغ أو تمرداً ضعيفاً على طغيان الواقع المرضي للفقر أو مجموعة تفاعلات شعورية ذاتية غير سليمة وغير متوافقة مع إرادة الحب الطبيعي، قد لا أعرف ما هو الحب لكنني أعرف إن ما حدث لم يكن حباً بتاتاً، والمزعج أكثر إنني لم أكن أرى ذلك حين كنت مقيداً به، ألهذه الدرجة كان لزجاً لا يمكن الفكاك منه دون فعلة صادمة مثل الخيانة! لست مصدوماً أكثر مما أنا فرح، شكرا لها على ما فعلت، ثم من جهة أخرى ربما لا يوجد حب سليم، متوازن بين الطرفين، هادئ منذ البداية إلى النهاية أو اللانهاية، موافق للمحيط الخارجي والبحور الداخلية إلا في رغبتنا الخيالية، لكن هذا لا يعني أن نقبل حباً كريهاً كهذا الحب، الفظيع أكثر هو أن الحب لا يعود يستحق التقدير بعد رفض النزعة الخيالية، أتمنى أن أكون مخطئا في ذلك وإلا حياتي كفقير معدوم ستصبح حادة وبائسة أكثر من ذي قبل، على العموم صارت القصة كلها

مرمية في حفرة الماضي، لكنني وبعد أن فتحت لي أبواب الفكر على مصراعيها، لم أستطع حينها ألا أفكر في تلك القصة رغم تحرري منها، إذ كانت الآثار لا تزال جديدة على جدران ذاتي، لكن الجميل إنني لم أفكر في تلك المرأة بل في الحب الذي كان بيننا وفي الحب كشيء مجرد عاري، حتى لو فكرت فيها فأنا أفكر في مشاعري تجاهها، فهي كانت محض وسيلة لأفكر فيَّ، ثم من كل تلك الأفكار المتضاربة سألتني حينها "هل كانت سأحبها لو لم يكن ذاك الحب هكذا؟"، "كيف أحببتها وفي ذاك الحب فظاعة لا توصف؟" انزعجت من تلك الرغبة التي خضعت لها، فلولاها لذهبت العلاقة إلى مكان آخر، ربما كان سيحدث ملل، ضجر، سأم، جفاف، ثم قطيعة، أو مشاكسة، حماقات، مشاجرة، معركة، ثم قطيعة، أو ابتسامات صادقة، حوار واضح، طرح رغبة الانفصال، ثم قطيعة، أو نفور، انجذاب، نفور، انجذاب، الاتفاق على المواصلة أو الانفصال، قطيعة أو المواصلة حتى وقت القطيعة، أو ربما احتمالات أخرى، الأهم ما كان يجب أن أقع في علاقة مشوَّهة ومشوِّهة، لقد فقدت جزءاً من نور ذاتي كان يمكن أن استثمره في عمل آخر أكثر نقاءً، ثم وبعد ضربات قاسية من الندم قمت أمشي في الحديقة محاولاً كل الوقت ألا أفكر ابداً، ولا في أي شيء حتى لو كان بعيداً كل البعد عن تلك القصة، لكن كل محاولاتي

كانت لحظية وفاشلة، إذ كلما مرت لحظة حتى تلت اللحظة الثانية وهي مثقلة بفكرة أو سؤال ما، ثم بهذا الصراع بين الفراغ والامتلاء ضربت رأسي بجذع شجرة كانت بقربي وفي ذلك أيضاً فشلت في الابتعاد عن أرض المعركة، فكرت في المستقبل، في الموت، في الحرية، في اللذة، في الوجود، وفي كل ميدان كان يشن الحب هجمته الشرسة علي، كان يختارني ويريدني لسبب ما مجهول، ولو وقفت أمامه فلن يقول لي شيئاً مفهوماً، إن الحب هذيان شرس في ذهن الحياة، غربة محجوبة بلذة سامة، طعنة خبيثة، ما كان علي أن أقع فيه، فلو أعلنت الحرب على القطيع كان سيكون أقل غباءً من الوقوع في الحب، كيف يمكن لكائن مثلي مسلح بالمعرفة والفكر أن تخترق جدرانه الدفاعية رصاصة صغيرة مثل الحب؟ هذا الحب يثير جنوني حتى قبل أن أفكر في تلك المرأة التي تثير جنوناً أعلى من الجنون ذاته.

بينما وأنا ضائع في أفكاري هكذا شممت ريحاً أنثوية تهز القلب فرأيت امرأة بديعة الجمال تمشي على مقربة مني فقفزت نحوها.

الفصل الرابع

-عما تريد أن تحدثني؟

نظرت حولي، إلى الأشجار والبشر والسيارات، قلت وأنا أراقب قطة تمشي بكسل على الرصيف

- دعينا نذهب فوراً إلى رغباتنا، لست في حال يمكنني فيه أن أظهرني أمامكِ، أنا الآن غائب تماماً عني، ولا أكاد أعرف كيف كان أسلوبي في التواصل مع الحياة، لذا فلنؤجل كل شيء، قد أكون مندفعاً وهذا صحيح ولذلك أسباب ستعرفينها لاحقاً، الأهم الآن أن بيتي قريب، أريدك، أشعر إنني متوسخ وأنت من تستطيعين الآن أن تنظفيني، ما رأيك؟

تحركت من مكانها -هذه المرأة التي قابلتها قبل ذلك بدقائق في الشارع وقمت بكسر كل العوائق بيننا حتى جلسنا حينها في المقهى ودار هذا الحديث بيننا- حركات تكشف صدمتها مما قلت، ثم قالت متلعثمة

- لا أدري، لا أظنك شخص سيئ، أسلوبك يوحي بالصدق والنبل والمشاعر الإنسانية الجيدة، حسنا، أحببت صراحتك الجريئة، اعتقد أنني سأغامر، حسنا وهو كذلك، فلنذهب، لقد سحرني فضولي تجاهك وتجاه ما ستقوله لي بعد أن نقضي ساعتنا، أنا جاهزة.

الفصل الخامس

ارتديت ثيابي بعد أن توقف قضيبي فجأة عن الشعور ببلل فتحة فرجها ثم انكمش كدودة مسحوقة، صرخت حينها

-إنها امرأة سامة كحية صغيرة، ضاغطة كصخرة من حديد، مزعجة كذبابة، غبية كقطعة إسفنج، تافهة كغبار تجمع في السرة، جافة كمؤخرة صرصور لديه إمساك، ثرثارة كدجاجة عاقر، سطحية كداعية من دعاة التنمية البشرية، غير مثيرة كتفاحة قديمة ممتلئة بالدود، كريهة كرائحة الخراف.

- إذن لم تفكر فيها ؟

- لا أريد، لا أريد لكن لا أستطيع

تمددت بجانبها، نظرتُ في عينيها وأنا أشعر بالحرج

- أنا آسف، لم يفلح ذلك، رأسي مكتظ بفوضى مزعجة

وضعت يدها على صدري

- لا عليك، أفهمك، استرخي، قل ما تريد قوله، أنا بجانبك

تنهدت قائلا:

- لا شيء يستحق التحدث عنه، أريد فقط أن أخرج من كل شيء، منها، مني، من العالم

- ستخرج، تحمل، هذه حالة طبيعية

- أكرهها، أريد أن أقتلها وأجفف دمها أمام شمس الخريف

- أحترم شعورك لكن ارجو أن تتعقل وألا تقع في حفرة أكبر

- بعض المشاعر تخنقنا إن لم تتحول إلى أفعال، لكن حسناً، سأحاول، أنا عاقل، نعم يجب أن أكون عاقلاً

- أكنت تحبها لهذه الدرجة!

-ماذا يفعل بنا الحب سيدتي! كم نحن ضعفاء أمامه، كم ينقصني من الشر حتى أتحمل هذه الأشياء القاسية، لا تنزعجي مني لو قلت لك إن الحب هو الشر الأكبر

- هذا ما تشعر به الآن، شعورك مجرد ردة فعل عن بشاعة ما حدث لك، وهذا ما يكشف لي كم أنت جميل القلب لذا لن انزعج، قل لي كل ما يخطر في بالك

- لا أريد أن أكون جميل القلب، أريد أن أكسر جمجمتها وأطحنها حتى تتحول إلى قطع صغيرة

قبلت شفاهي ثم تكورت على صدري، أخذت شهيقاً طويلاً

- اللعنة على كل شيء، اللعنة على اللعنة أيضاً

مرت دقائق من الصمت ثم قمت واخرجت الخاتم من جيب بنطالي

- هذا لك، تستحقينه

نظرت بدهشة إلى الخاتم ثم عادت منضبطة

- لا، لا يمكنني أن أقبل، لكن لم تريد أن تهديني خاتماً؟ أظنه لها

- لأنك تفهمين الإنسان، حسناً هذا سبب كافي

قبلت به بعد عدة محاولات عنيدة مني ثم ذهبت تغتسل بعد أن قررنا الخروج إلى الشاطئ.

الفصل السادس

- هل تسمعينني سيدتي الجميلة؟

- انتظر، دقيقة وأنتهي

- أريد أن أذهب بالصدق إلى آخره حتى لا تلتهب لك خيبة في المستقبل، سيدتي أنا للتو خرجت من علاقة ولا أزال مريضاً بها فإن دخلت في علاقة أخرى ستكون وسيلة شفاء أكثر من أن تكون علاقة حقيقية، أرجو أن تفهميني، لا أريد أن ترتبط بي صورة سيئة في ذاكرة أحد، نعم نحن بشر ولدينا أخطاء وسنخطئ دائماً لكنني هنا أرى وأستطيع أن أمنع ذلك، قد تقولين أن الحب يجب أن يكون علاجاً وإلا سيكون كذبة قصيرة، وقد تقولين أن الحب الذي يشفينا من أمراض الماضي يصبح أكثر قوةً ودهشةً وقداسةً، وقد تقولين إن الذاكرة هو فعل مساعد للحب، وقد تقولين أعرف ولست مهتمة بذلك وقد تجرين نفسك خلف لطفك إلى هذه المصيدة، وقد تخجلين من صدقي وجمال ذاتي، وقد تحبينني لأسبابك الخاصة، لكن أريد هنا أن نتوقف، لست جاهزاً، من المرعب خروج من معركة النقصان ثم دخول في معركة الذنب، لن يكون بيننا حب، سيكون علاقة بين مريض وطبيب، بين

مريض قد يتعود وتذهب به نفسه إلى طلب المزيد بسبب أفعالك النبيلة الأولى وطبيب رسم للمريض عن نفسه صورةً حسنة ولم يعد يستطيع أن يقول "لا"، هل ترين إلى ماذا سيؤدي كل ذلك؟ كم ستكون العلاقة بيننا مختلة؟ هذا حتى قبل أن نتقرب من بعضنا ونرى الجوانب الأخرى، قد تقولين الآن إنني أنظر إلى الجانب السيئ فقط وهذا صحيح، وسيكون مبرراً جيداً لتهربي مني وسيسعدني ذلك بالتأكيد، ومن جانب آخر أريد أن أخبرك عما يدور في داخلي عنك، وقد يكون ذلك على النقيض مما قلته لكنني سأخبرك لأننا لن نلتقي مرةً أخرى، هذا صحيح، أرجو أن تتفهمي ذلك من أجلي حتى وإن كان لديك الرغبة باللقاء بي مجدداً لأسبابك الخاصة، حسنا ما أود قوله هو أنك امرأة ناضجة وذكية ومتفهمة وحنونة، وهذا لوحده من ممكن أن يغوي رجلاً مثلي، وأنت أيضاً مثيرة وعبقرية في ممارسة الجنس وهذا نادر جداً، وأنت أيضاً جميلة، لديك وجه بديع وابتسامة مدهشة وجسد متناسق ومؤخرة ممتلئة ونهدان كبيران وفرج شهي، أنت مذهلة بكل ما رأيته منك من جمال خارجي وداخلي، لا أبالغ لو قلت لك إنني شعرت بجمال الحياة معك، ذلك الجمال الهادئ، إلا أنني يا سيدني لدي الآن دم يغلي وذاتٌ تفيض حائرةً تائهةً في فوضى مجنونة، وهذا أكبر شرخٍ بيننا، كم أود أن أكون الآن واضحاً، بسيطاً، شفافاً، خفيفاً،

نقياً، مثلك، كم أود أن تكبر رغبتي فيك فوق جنون "ما بعد الحب" الذي يثور في داخلي وندخل معاً في حياةٍ جديدة، كم أود أن أصبح شريكاً لك في كل الحيوات التي قد أعيشها في داخلي في هذا العالم الغريب، أترين كم أنت بعيدة عني أو أنا البعيد عني ؟ أترين المسافة المجنونة التي تجعلني أجن أكثر من هذا الشعور الهائج في داخلي؟ إنني الآن من فرط جنوني أبحث عن لغة أخرى أقرأ بها كل ما أنا فيه لعلها تغير كل شيء أو تفتح لي باباً نحو سماءٍ مجهولة، عن لغة تقرأ الحب بطريقة أقل عنفاً، أكثر طمأنينة، أخف جنوناً، أو تقرأه بشكلٍ أكثر دهشةً وغموضاً وعماءً حتى أضيعني تماماً دون أن يبقى لي ثقب صغير أرى منه عيباً لهذا الحب، عن لغةٍ ترتب وتنسق كل شيء وفق خيالك أنت، نعم أنت فقط، أنت من تستحقين أن يتحرك الكون وفق أوامر رغبتك وصوت إرادتك، لكن الآن وهنا لا توجد لغة أخرى ولا أنا أخرى، كل شيء على حاله، الضجة التي تعبث في داخلي، صمتك خلف باب الحمام، القصة الحادة التي تتحرك ممزقةً جسد حياتي، النهاية التي تنتظرنا بعد ذهابنا إلى الشاطئ، الاحتمالات الخيالية التي سأفكر فيها عن " ماذا لو لم تتوقف علاقتنا؟ " الفراغ الذي سيحدثه غيابك والذي سيكون مكاناً لعراك عقلي مع الحب، قد تتمنين الآن أن تعرفي الغيب أو أعرف أنا الغيب حتى نرى إلى أين

ستذهب بنا الحياة لو قررنا إقامة علاقة بيننا، وقد يحدث ذلك الآن بضربة مجهولة تناقض النظام الفيزيائي فنرى كل شيء في لحظة واحدة، كل الكلمات التي ستجمعنا في صوت واحد، كل اللحظات التي ستجمعنا في مكان واحد، كل الأفكار التي ستجمعنا في فضاء ذهني واحد، كل الجماليات التي ستجمعنا في حدس واحد، كل الأشياء التي ستجمع بين حواسك وحواسي، إلا أن كل ذلك -ولسوء القدر- لن يغير شيء، فأنا هو أنا، وأنت أنت، والماضي ماضي، والحاضر الآن ثابت ثباتاً يؤكد صحة القرار الذي أخذته عنا.

خرجت من الحمام وهي تجفف شعرها الطويل

-ماذا كنت تقول؟

قمت عن الأريكة متعجباً

- ماذا تفعلين هنا!

- ما بك؟ ماذا حصل؟

صرخت بصوتٍ عصبي

- تخونينني وتأتين إلى بيتي! ما هذه الوقاحة!

اندفعت نحوها، أمسكت بيدها، سحبتها خلفي

- اخرجي من بيتي قبل أن أقتلك فأدخل السجن للسبب تافه.

ثم رميتها خارجاً.

الفصل السابع

تمددت أفكر، كيف يمكن أن تتغير وهي في الحمام؟ طبعاً هذا مستحيل لكن لم حدث ذلك؟ أجننت بسبب امرأة تافهة؟ شعرت بالذنب من فعلتي الغريبة، كانت امرأة لطيفة، لا تستحق مطلقاً ما حدث، كان يجب أن ينتهي لقاءنا بشكل طبيعي هادئ، لكن حدث ما حدث، لم أكن أدري ماذا سأفعل، مشيت في البيت ذهاباً وإياباً لأكثر من نصف ساعة، ضائعاً، تائهاً، مشوشاً، فاقداً لأبسط قدر من المعرفة التي تمكنني من عيش يومي، لم يكن يوماً عادياً، الزمن كان ثقيلاً والمكان كان زلزالاً مستمراً والقلب كان بركاناً، كنت أبحث عن أي شيء يشغلني عني، أي شيء تافه ينقذني من لهيب ذاتي، فكرت في الانتحار كاحتمال ممكن لكنني وضعته كأخر احتمال، إذ كان من السخف والضعف أن انتحر من أجل الحب، الانتحار إما أن يكون من أجل العدالة أو فلا، ثم بحثت عن احتمالات أخرى فوجدت شيئاً، قفزت أشغل الموسيقى، كانت موسيقى صاخبة، رقصت حتى وقعت على الأرض من التعب، ثم وأنا ممدد على الأرض طرق الباب كثيراً، لم يكن سوى مالك البيت إذ لا أحد يعرف بيتي من الأصدقاء، إنه بيت سري أو لا أخبر أحداً عنه لأنه لا يشبهني ابداً، وبعد أن

توقف الباب عن العواء قمت أعد كوب نيسكافيه، وأنهيته مع عدد هائل من السجائر ولحظات قاسية من السخط، ثم نظرت إلي في المرآة أفكر " من هذا؟ ما بك؟ ماذا جئت تفعل في هذا العالم؟ لم يجب أن تعيش؟ من أجل ماذا؟ إلى أين نحن ذاهبون بهذا العالم؟ كيف سينتهي العالم؟ كيف ستنتهي حياتك؟ كيف نفهم كل شيء؟ ماذا ستفعل اليوم؟ " ومن هذه الأسئلة التي تخطر في ذهن أي شخص رأى شيئاً من المجهول عن مجهول الوجود، لم أكن في حال جيدة لأفكر في الوجود كانت مجرد أسئلة ساخطة أكثر من أن تكون أسئلة حقيقية، ربما كان السخط أصل كل معرفة وبذرة كل سؤال، لكن سخطي حينها لم يذهب بي إلى استعمال عقلي الفلسفي، كان سخطاً من نوع آخر، سخطاً واضحاً كالشمس ومضيئاً كالقمر، كان يحمل في لبه الرغبة الأولى لكل إنسان يعيش في هذا العصر " أريد أن أشفى من كل شيء" إنها رغبة غير صبورة أو لا يمكن أن تكون صبورة إذ إن الجرح قد صار أكبر من البصيرة، عالمنا اليوم يدفعك بقوة إلى البحث عن العزاء وفي الوقت ذاته يلغي إمكانية وجود أي عزاء، فيتركك وحدك تغرق في دم جرحك حتى تصبح جزءاً منه، رافضاً مثله للعزاء، هارباً من كل طمأنينة، ومحارباً في سبيل تدمير الطمأنينة، ولأنه منذ البداية أوجدك على النقيض من الطمأنينة، أما السعادة فقد صارت وهماً قديماً

يثير الضحك والحزن معاً، ربما سخطي هو دافعي الأقوى في دخول الحب، قد يكون الحب شكلاً من أشكال المعاناة التي تجعلنا نتحمل المعاناة الكبرى للعالم أو ننسى لبعض الوقت إننا -هنا- في مصيدة كسرت أعمدتنا الفقرية أو نخلق هدنة نفسية تريح أجهزتنا العصبية من صراخنا غير المجدي، ضربت رأسي بالأرض بسأم، هارباً من كل شيء، ثم وإذا بذكرى موحشة تنفجر في داخل، خرجت من المنزل وأنا مصمم على المواجهة.

الفصل الثامن

لا يوجد شيء كما هو، هو كما هو لأنه مرتبط بشيء آخر

الفصل التاسع

-من يعد لك الطعام؟

نظرت إلي نظرات غاضبة ثم سارعت تقول بقهرٍ مفجع وهي تهتز في مكانها اهتزازات عصبية تكشف ضراوة تغلغل الشيخوخة في جسدها

- ابي، ابني هو الذي يعد لي الطعام وينظف منزلي ويتحدث معي في كل صباح ومساء.

ثم انفعلت بشوقٍ حزين وبحنانٍ أمومي تكسر الجليد المتصلب في القلوب

- كيف حالك يا بني، هل تأكل جيداً؟ هل تنام جيداً؟ طبعاً أنت تعمل أليس كذلك؟ هل وجدت امرأة جيدة؟ أخبرني عنك قليلاً، لقد مضى زمن طويل لم تأتي إلي!

- كل شيء حسن، لا تقلقي

ابتعدت عنها وأشغلت سيجارة

- كل ما أتمناه هو أن تموتي بهدوء ودون ألم، لقد وعدتك سابقاً بأن أدفنك بجانب أبي، لم أنسَ ذلك، حتى أنني حفرت القبر واشتريت التابوت منذ زمن طويل.

تغيرت ملامحها فجأةً وصارت صارخة بالحزن، لاحظت أيضاً دموع تغرق عينيها ببطء

- سأموت يا بني، سأموت، أنا أيضاً لا أريد أن أكون حملاً ثقيلاً عليك، حتى إنني أحاول، نعم أحاول كل أيام ألا أتذكرك، أخشى أن تحس بذلك وتشعر بالحزن أو تتعطل أعمالك

اقتربت قليلاً وأمسكت بيدي

- أنا قلقة عليك، هل حدث معك شيء؟

نظرت إلى دموعها، رأت نظراتي الباردة فمسحتْ دموعها بحركة متشنجة سريعة

-لا شيء، كل شيء على حاله، كل شيء هو أقصى إمكان للخير، جئت فقط لأتحدث عن بعض الأشياء العالقة في داخلي

- هل أنت جائع، حسناً سأعد الطعام

أجلستها وقلت منفعلاً وبصوتٍ بارد خشن وعالي قليلاً

- اجلسي أماه، لست جائعاً، لا أريد شيئاً، أنا فقط أريد أن أخبرك إنني لست سعيداً بوجودي ولا أستطيع ألا أتهمك بهذه الجريمة، وهذا ما يقذفني داخل معركة شعورية صاخبة

انفعلت تقول بنحيب حزين

- لكنني لم أفعل شيئاً، أنا أحبك، أريد أن تكون سعيداً، سأفعل لك كل ما تريده ودون تردد، لم لست سعيداً؟ هل فعل لك أحد شيئاً سيئاً؟ هل ينقصك شيء؟

بدأت تبكي فجأةً

- أخبرني أرجوك ماذا حدث معك

قمت من مكاني بقفزة لا واعية وصرخت عليها

- لم تحاولين خداعي؟ لم تخلقين في قلبي شعور الذنب؟ أهذا هو كل ما تستطيعين فعله حتى أخضع لسلطتك الأمومية؟

جلست في مكاني وأخذت شهيقاً طويلاً وقلت بعد أن رأيتها ترتعش بقوة

- أحاول أن أكون متفهماً للموقف لكنك تدفعينني دفعاً نحو الانزعاج والغضب والجنون، أرجوك كوني هادئة قليلاً فكل سوء فهم يزيد من الموقف حدةً ووجعاً

قالت بصوت ضعيف وهي تخفي فزعها وحزنها وشعورها الحاد بالوحدة

- أنا هادئة، نعم أنا كذلك، جداً

صمتت قليلاً ثم نظرت إلى الأرض وكررت بطريقة هستيرية

- جداً

قلت بعد أن أشعلت سيجارة جديدة

- أتفهم كل ما تشعرين به، أتفهمه جيداً لكنني لا أستطيع أن أشعر بمشاعرك، أنت بعيدة عني أو أنا بارد لأنني قررت وحكمت مسبقاً في القضايا التي تتعلق بذلك، لكنني الآن لا أدري هل علي أن اقترب منك أم أبتعد أكثر، لقد فشلت في الحب، أنا أفشل دائماً في ذلك، إن المسافة التي بيننا وفشلي في الحب مرتبطان ببعضهما، لكن حسنا سأعيد التفكير لربما أجد أصل المشكلة، إن على الابن فصل مشاعره عن أمه حتى يستطيع ربطها بامرأة أخرى وعليه أيضاً أن يحب أمه حتى يحب نفسه، هل ترين هذه العقدة؟ وفي الحالتين لا تسير الأمور بشكل سليم فأنا لا أستطيع فصل مشاعري عنك لأنني أعيش تعاسةً عنيفة تجبرني على كرهك وهذا ما يجعلني أفشل في الحب في الوقت ذاته، قد يكون لفشلي أسباب أخرى كثيرة لكنني

أعرف، أعرف جيداً إن السبب الرئيسي الطاغي على كل الأسباب الأخرى هو كرهي لك، هل تعلمين لم أكرهك كلما أشعر بتعاستي ؟

- لكن أنا أحبك!

- حبك السام يخفي أصل المشكلة، بل هو يساعد المشكلة على البقاء في الخفاء.

-لكنني لا أستطيع ألا أحبك، أنت ابني

- أعرف ذلك، لكن ليس لأني ابنك، أي حبك لي ليس نقياً، إنك تحبينني لأنني أحمل جيناتك وعليك أن تحافظي علي حتى انقلها إلى المستقبل، لأنك تشعرين بالوحدة والسأم، ، لأنك تعرفين إنني تعيس، لأنك تعيسة أيضاً، لأن المسافة بيننا كبيرة، لأنني لا أشاركك الحب السام ذاته، لأنك تخشين من الموت، لأنك عشتِ حياة تعيسة، لأن ذاكرتك ثقيلة، لأنك لا تعرفين عني شيئاً، كل هذه الأسباب ترتبط ببعضها وتخفي المشكلة ولكنها أيضاً تظهرها إن فكرنا قليلاً.

حملت كأس الماء عن الطاولة ثم شربت الماء وأنا أنفث الدخان، نطقت بشكلٍ رسمي يخفي خلفه صوتاً باطنياً محملاً بأطنان من الوجع

- الحب مشكلة كيفما قلبناه وأينما وضعناه وكيفما نظرنا إليه، مشكلة لأنها تضرب جذور ذواتنا وأسس بصيرتنا وأرض رغبتنا، مشكلة لأنه يأتي ويرحل دون أن يكون لنا إرادة في ذلك، ولأن كل ما يتعلق به خارج إرادتنا أيضاً، حيواتنا طاولات مقامرة ونحن أوراق اللعب، إننا معتقلون داخل سجون مصممة بالجينات والأثار والطفولة والطبقة الاجتماعية والشبكة البشرية والارتباطات السياسية الاقتصادية العالمية، والحب يذهب بنا خارج هذا المألوف الواقعي ولكنه في الوقت نفسه يظهره ويكشفه في تفاصيل التفاصيل، فهو لعبة كشف وإخفاء.

كانت تنظر إلي نظرات تكشف عدم فهمها لما أقوله وكنت قد استنفذت كل طاقتي العقلية التي كانت محاولة هربٍ غريبة وبدأ دمي يغلي غليان النار في البركان، ثم وبشكل تدريجي فقدتني في انهيار عنيف فقفزت إلى حضنها وأنا أبكي وشرعت هي أيضاً تبكي معي

- أنا تعيس لأنني غير قادر على الانسجام في الحب وغير قادر على الهرب منه، أنا تعيس لأن الحب يحدث في حياتي بشكل جنوني، قهري، شقي، قذر، أنا تعيس لأن حياتي -التي هي امتداد لجيناتك وجينات أبي- تعيسة، فقيرة، غارقة في بؤس العدم، أنتما من قذفتماني إلى هذا العالم القذر، إلى هذا العالم الذي يرضي شخصاً ويعذب

ملايينا من الأشخاص، أنا تعيس لأنك تستحقين الحب ولأني غير قادر على حبك، أنا تعيس لأنك تستحقين الشفقة ولأني أشفق علي فلا أستطيع أن أشفق عليك، أنا تعيس لأنني مسجون وأدرك إنني مسجون، أنا تعيس لأنكما صنعتما شخصاً مسجوناً ويعرف إنه مسجون، أنا تعيس لأنني أفكر، لأنكما خلقتما رجلاً يفكر، رجلاً لا يستطيع ألا يفكر، رجلاً يموت كلما فكر في حياته، رجلاً يموت كلما تذكر إنه ولد بسبب نشوة لحظية خادعة حدثت بينكما، أنا تعيس لأن كل شيء يدفعني إلى التعاسة.

مسحت دموعي بينما كانت تردد عبارات حبية تكشف كل ما كتمته من حبٍ تجاهي، عانقتها عناقاً قوياً ثم قمت وأشعلت سيجارة جديدة واتجهت نحو الباب ببرودة

- وداعاً أماه

لم أنظر خلفي، نطقت بصوت متألم ضعيف

-وداعاً بني

الفصل العاشر

جلسنا في شرفة بيتها الكبير

- هذا ما حدث

- مجدداً وقعت في الفخ، أخبرني أولاً لماذا لم تأتِ إليّ منذ شهور

نفخت الدخان في الهواء

- لقد أصبحت امرأة صعبة، معقدة، ممتلئة، صاخبة، مثلي وهذا يجعلنا ثقيلين أكثر كلما صار بيننا احتكاك، ثم أخاف أن يفجر أحدنا الآخر، لكن الآن أو قبل قليل شعرت بحاجتي إليك أو كما يقولون "اشتقت إليك"

- لقد تغيرت كثيراً بعد أن اكتشفت تفاهة تجربة الحياة

أخذت القداحة عن الطاولة ثم اقتربت مني ومررتها على جسدي بحركة شبقة، من عنقي إلى مكان قضيبي، وبعد أن أشعلت سيجارتها وضعت يدها على قضيبي وبدأت تحركه حركات شهوانية وهي تنظر في عيني

- وأنا أيضاً

قبلت خدي قبلة صغيرة

- دعنا نرتاح قليلاً

ابتعدت عنها ببرودة

- لقد جربت ذلك وأيضاً لم ينجح، إنني ممتلئ بأشباح ثرثارة، ثم إنني بغنى عن مغامرة حادة معك

عادت طبيعية

- إنك تدمر جهازك العصبي، لم لا تبتعد عن النساء قليلاً؟

- لا أستطيع، إنهن تقربنني من جوهر الحياة أو أقع معهن تحت وهم الجوهر، البسيطات ببساطتهن تصنعن في بصيرتي خديعة الوضوح، يصبح الوجود أقل ثقلاً وتعقيداً وألماً، أشعر معهن بالخفة التي افتقدها، بجمالية أزيز الريح، برشاقة الكلمات على أوتار القلب، بلذة الوجود في الزمن، بمرونة ضربات القلب، بسهولة العيش في هذا العالم، وفي المعقدات أيضاً جمالية لا تقاوم، فهن يضربن بكفوفهن قعر التصورات والاعتقادات والأفكار والتخيلات، تجعلنني أعيش في خطر الخيبة والخطأ والريبة، وخطر الكينونة كلها.

توقفت فجأة ثم قلت مع ضحكة ساخرة

- وربما للسبب ذاته الذي يجعلك تعملين في السياسة

ردت علي بالضحكة ذاتها

- أنا أريد أن أحكم العالم وهذا بعيد جداً عما تفعله بنفسك

تنهدت قائلاً

- أنت تريدين حكم العالم وأنا أريد اكتشافه وكلتا الرغبتين مجنونتان

ضحكت ضحكة كبيرة ثم نظرت إلى السماء

- أنت بعيد عن العالم

شعرت بانزعاج، اندفعت قائلاً:

- عالمك مجرد أكذوبة سخيفة تدغدغ جشعك نحو صورة لا قيمة لها أما عالمي فهو كل العوالم، إذ كل شيء يبدأ من داخل الإنسان وينتهي فيه، عالمك يغلق عيون البشر ويجعل منهم حمقى وعالمي يفتح عيونهم على ذواتهم وعوالمهم، عالمك يدمر عالمنا بأكمله، عالمي يعيد تشيده.

نظرت إلي بكل ثقة وهدوء

- نحن ننظم العالم حتى لا يدمر بفوضى ذواتكم، نحن نعيد الحيوية إلى جنسٍ سيأكل نفسه بالملل إن توقف عن الحركة، نحن نخلق الحركة التي تخلق لكم ذواتكم، نحن نخترع المستقبل والحاضر والماضي، نحن نجعلكم تتعلقون بالحياة، نحن الذي نخلق الدم في جسد الحياة

نطقت بصوتٍ ممتلئ بالرفض

- عن أي عالم تتحدثين؟ عالمنا اليوم ضائع، تائه في صراعات وأطماع غبية وكل تداعياتها قذرة ومؤذية، وقد تدمرون الأرض بقنبلة في أية لحظة

نفخت دخان صدرها وقالت بصوتٍ متسرع

- لا تأخذ الأمور بكل هذه الجدية، إنها مجرد لعبة

- لعبة!؟ ماذا عن ملايين الضحايا والأبرياء؟

عدلت جلستها، وضعت ساقاً على ساق، قالت بملامح صادقة

- لا تكن حساساً لهذه الدرجة المفرطة، ملايين الضحايا أفضل من أن تنتهي البشرية كلها، كما إن ذلك أسلوب من أساليب الوجود، ونحن مثلكم يتوجب علينا أن نمارس دورنا، وأنتم أيضاً لديكم الكثير من النتائج المؤذية، أنتم أيضاً تشتركون بطرق غير مباشرة في سفك الدم البشري، أنتم تخلقون الاختلافات والتناقضات والنزعات المتضاربة والأفكار المتعالية والمثل العليا

أشعلت سيجارة جديدة وقلت بانزعاج

- أنتم الذين تستخدمون كل هذه الأدوات بطرق سيئة

نظرت إلي نظرة ذكية ورفعت حاجبها الأيمن

- لا تضعني في أرض حربك مع الوجود

قلت بغضب

- هذه طريقة سيئة للهرب، إنكم تستطيعون تغيير كل شيء في عام واحد، تستطيعون جعل العالم مكاناً مسالماً وللجميع لكنكم تستمتعون في رؤية الحروب والدمار والموت والقلق والألم والضعف والذل والقهر والقذارة والطغيان والعبودية والغباء والتعصب والهمجية والبدائية والجشع والأنانية والعدمية من وراء الستار

ردت ببرودة عنيفة

- هذه ليست مهمتنا، دعنا من كل ذلك ولنعد إلى عالمك، فقط أخبرني كيف تقع في الحب بهذه السهولة؟

مسحت وجهي بكفي

-أنا رجلٌ ناري وفي الحب كل نيران الحياة

- اعذرني فأنا امرأة لم تعد تفهم الحب لكن الآن مع حالتك المريضة أريد أن أفهمك، ما المثير في الحب ؟

نظرت إلى السماء متفكراً متأملاً

- ذلك التخبط المدهش أمام التناقضات التي تخلق في الذات هو أكثر ما يثيرنا في الحب، فالحب يجمع بين الحرب والسلام، بين الانجذاب والنفور، بين الطمأنينة وشعور فقدان الذات، بين المسافة والاحتواء، بين الأنانية

والتضحية، في الحب راحة أبدية وتعب أبدي، جمال غريب وقبح فاضح، في الحب نشعر بالفضيلة المتعالية وبالرزيلة السفلية، في الحب نعيد مرة أخرى التفكر في تصوراتنا عن الحياة، في الحب يختفي الموت، في الحب ثمة فوضى لذيذة، تلك الفوضى التي تستسلم لها دون أن تفكر في الاحتمالات المستقبلية لذاتك ولصورتك الجديدة في العالم، دون أن تفكر في أي شيء مرتبط بأي شيء عملي، فتتحول إلى قنبلة خيالية تنتشي كلما انفجرت

ردت بفضول مراهق

- لهذه الأسباب تقع في الحب؟

نظرت إليها مع ضحكة تنتقم من شيء ما

- ربما أنا أقع في الحب لأن ثمة شيء في داخلي أريد قتله ولا أستطيع، أو هي طريقتي في إعادة خلق الحيوية في ذاتي، فكلما تجمدت ذاتي رأيت قشرتها تتكسر بمطرقة الحب

- أريد فقط أن أفهم، أنا أعرفك منذ سنوات واعتقد إنني أقرب صديقة إليك، لكنني لم أفهم لم حياتك هكذا، بكل هذا الصخب، بكل هذه التعقيدات الغريبة!

شردتُ أقول بهدوء

- لدي مشكلة كبيرة منذ أن تعرفت عليها تحولت حياتي كلها، إنها مشكلة من النوع الحاد، تبدأ من الجذور وتتغلغل في الأصالة، إنها الرغبة، مشكلتي هي الرغبة، فهي تختبئ خلف كل مشكلة وتجعلها عقدة كبيرة أو إشكال فلسفي عمومي، إنها خلف الحب أيضاً، هذا الحب الذي يرتفع فوقي ويغوص تحتي ويمسك بي، والآن وبعد محاولات هرب فاشلة لا أدري ماذا سأفعل

أعطتني سيجارة جديدة وأشعلتها لي

- لديك احتمالات كثيرة من ممكن أن تعالج بها هذا الحب، الجنس مثلاً، النسيان، خلق دراما جديدة، الغوص في الألم، الفن، التفاهة، الفلسفة، الانتقام، السخرية، العمل، في كل الأحوال وبما إن مشكلتك ترتبط بالماضي فيمكنني أن اقول لك أن الماضي هو صورة من صور خيالنا عن الحاضر ومع تغير الحاضر الماضي أيضاً يتغير يصبح أثقل أو أخف حسبما تعيش.

شردت مجدداً

- لكل خيال زمني مشاكله، الماضي، الحاضر، المستقبل، لكن الأشرس هو الماضي لأنه موجوداً مسبقاً في الذات ويتدخل في كل صراع ذاتي، وحين تكون المشكلة هي الحب يشتد الصراع أكثر، إذ أن الحب يجلب معه كل

الأزمنة ويهز كل ارتباطاتنا بالعالم، فالحب ليس مجرد شعور جسدي أو تفاعلات كيميائية أو وسيلة تكاثر، إنما هو موجود دائماً في الشبكة البشرية العالمية أو الشكل الذي يحدث فيه هذا الحب يتكون لأن هذا العالم هكذا ولأن حياتك هكذا ولأنك أنت هكذا

- ألهذا تكره المال والجهل والسلطة ؟

قلت بغيظ

- ثالوث اللعنة

صمتت قليلاً ثم طرحت فضولها بأسلوب مستفز

- لم لا تريد أن تعمل؟

تنهدت ثم قلت بشكل سريع كمن يحفظ الجواب مسبقاً

- من الفظاعة أن ترى حريتك تسرق منك أمام بصيرتك وأنت لا تتحرك في سبيل الوصول إلى غايات أخرى، كيفما كانت هذه الغايات فهي غايات قذرة بما إنها تتجاوز الحرية، ثم حين نصل إلى تلك الغايات فستكون مثقوبة بأشواك الندم، كيف لا يندم إنسان وفي قلبه شعور الحرية على ضياع حريته؟ هل جربتِ شعور الندم؟ أن تكوني ولعة بعودتك إلى الماضي لتغيري الحدث الذي سبب لك هذا الندم وفي الوقت ذاته تعرفين إنك لو عدت ونظرت

مجدداً إلى كل جوانب الحدث فستقومين مجدداً بالعمل الذي خلق في داخلك الندم، وأنا لا أريد أن أندم ولا أريد بيع حريتي ولن أشوه حياتي في سبيل غايات بشرية عمومية.

لم تكن بعد قد فهمت تماماً، أخذت شهيقاً عميقاً وأكملت أقول لها

- إن عملي، ساعات العمل الثقيلة، يسرق لحظتي التي هي قدرتي على أن أكون حراً وجل حريتي الوجودية، كيف أعيش في لحظة لا أعيش فيها، ولا أعيش ما أريده؟ أو أين أنا إن لم تكن لي رغبة في أن أرغب أو حتى لا أرغب، أنا يجب أن أخلق رغبتي، رغبتي لي حتى لو لم أكن أفهمها تماماً فتكفيني ممارستها فهي جزء لا يتجزأ من حريتي

صحت ساخطاً

- هل تعلمين كيف يمزقني سأم في تلك اللحظات التي أعمل فيها لأني مجبر على ذلك، هل تعلمين إنني -في تلك اللحظات- ميت لكن دون راحة، هل تعلمين كمية الأفكار الجحيمية التي تمر في ذهني حين أريد أن أصرخ، أن أصرخ فقط فلا أستطيع، فتبقى هذه الصرخات في الداخل تمتص دمي

قمت من مكاني وصرخت

- عليك اللعنة أيها العالم

ذهلتْ فأمسكت بي خشية أن أتهور وأقفز نحو الأسفل

- اهدأ عزيزي، كان مجرد سؤال

عدت جالساً، أخذت عدة شهقات، عدت هادئاً

- أنا هادئ لكن الحب لن يهدأ، ربما عملي يؤثر بشكل ما على حبي، قد تكون كل لحظة حب أعيشها صرخة كتمتها سابقاً.

مرت عدة دقائق من الصمت ثم أقبلت علي

- حسناً هذا شعورك وماذا عن عقلك؟

- تفاهة، حتى قبل أن نتحدث عن الغايات والأسباب العمل بحد ذاته تفاهة، نعمل من أجل الإنتاج، ننتج من أجل العمل، وكل الجوانب الأخرى أدوات مساعدة لندور في هذه الحلقة الفارغة، نأكل، نشرب، نحب، نؤمن، نتخيل، نفتعل الدراما، نثرثر، نشغل كل مشاعرنا، نمشي، نقيم علاقات، نقيم عداوات، ننام، ومن جانب آخر توجد تلك الأوهام المنتفخة، الله، الدين، الوطنية، السلطة، الأسرة، المستقبل، المكانة الاجتماعية.

ضحكتْ تقول

- ماذا سنفعل إذاً!

- سنبحث عنا

- سنبحث عنا دون مال!

- هذه هي الخديعة الكبرى، إن كل الجوانب التي تحدثت عنها مشوهة القيمة -إن وجدت لها قيمة- بسبب سلطة المال، فهو الذي يجعلنا سجناء يقدسون السجن على الحرية ودون أن يدروا بذلك، فردياً ما أن يرغب المرء بالمال يكون قد دخل إلى داخل اللعبة وسيتكون كل أفكاره بناءً على مصلحته الشخصية ودون أن يدري بذلك

- أنا لا أفهم ماذا تريد!

نظرت إليها بثبات عالي

- أريد أن نعيش

تنهدت تقول

- لا يمكننا رفض التغيير، الوجود دائماً في حالة تغير، العالم أيضاً، وكل الرموز والحالات والجوانب التي ذكرتها تتغير، الأهم من كل ذلك إن تغير مركز القوة هو سيرورة وجودنا البشري.

ألقت علي نظرة شفقة وقالت

- أنت يائس، دعني أعطيك علاجاً سيعالج كل شيء فيك.

أحسست بالانزعاج لكن لم أنطق، أشعلت سيجارة وحركت رأسي ساخراً وفاتحاً لها الوقت لتتحدث، عدلت جلستها وبدأت تتحدث بثقة

- سأسمي هذا الدواء "قفزة نحو البيئة" وهي ببساطة أن تخلع عقلك -بكل ما به من اعتقادات وأفكار وتخيلات وكل شيء- وتضعه جانباً ثم ترمي نفسك في العالم، في الدولة التي تعيش فيها، في المجتمع الذي تعيش فيه، في الشارع الذي تعيش فيه، افعل ما يفعله الذين حولك، عش مثلهم، في نظامهم الاخلاقي، في نظامهم العقائدي، في نظامهم الفكري، إذا رأيتهم يقتلون الأطفال بدمٍ بارد فافعل أنت أيضاً!

كتمت غضبي وقلت بصوتٍ حاد

- كأنك تقولين لا تكن أنت وارمي نفسك في البحر إذا رأيت الجميع من حولك يفعلون ذلك!

- بل أقول لك إن الإنسان حيوان بيئي

- وعاقل أيضاً!

- كل ما يفصل الحيوان عن بيئته يخالف طبيعة العقل السليمة

- وكل ما يفصل الإنسان عن قيمته يخالف طبيعة الحياة السليمة

- البيئة قبل كل شيء

ضغطت أسناني قائلاً

- بل جنون الماوراء قبل كل شيء، إذ هو الذي فتح لنا كل الأبواب؛ اللغة، الفلسفة، الوجود، الجمال، القيمة، المعرفة، العلم، الحضارة، وكل الحياة، كلها

-أنت يأس عزيزي..

لم أتحمل تجاوزاتها الغريبة

- إنك تخفين نفسك بقناعٍ ثقيل، كأنك بهذه الأفكار تنتقمين من أحد ما، وكأن ذلك الأحد أنا؟

تعجبت قائلة:

-ولم سأنتقم منك! ماذا فعلت لي؟

احتقنت في قلبي رغبة طائشة لكنها أشعرتني بالفرح، قلت بحذر

- ربما لأنني انتقمت منك في علاقتنا تلك

نظرت إلي بوجهٍ متعجب ومندهش، أكملت أقول

- على سريرك، حين كنت أقذف في فرج تلك المرأة كنت أعرف أن ثمة كاميرا في الغرفة

قامت من مكانها هائجة وهي تنظر في وجهي، ققزت علي فجأةً ووضعت يداها حول عنقي

- أيها اللعين وكنت تبكي لأيام حتى أعود إليك!

لم تستطع أن تشد يديها حول عنقي بقوة لكنني مثلت إنني أختنق وقلت متلعثماً

- كنت أحبك لكن لم أتحمل نفسك الثقيلة وبكائي كان صادقاً وعقلي أيضاً

توقفت فجأة وذهبت نحو الداخل، مرت عدة دقائق ثم عادت وفي يدها كأس ويسكي

- أنا هادئة، لا يهمني، لقد ذهب كل شيء، لم تخبرني الآن؟ ماذا تريد؟

- لا شيء، كنت أشعر بالذنب تجاه مشاعرك

أطلقتُ ضحكة ذكية

- ولأننا لا نستطيع قتل الأطفال بدمٍ بارد عزيزتي

- البشرية قتلت الملايين من الأطفال في التاريخ وفي الحاضر وستقتل الملايين في المستقبل

قمت من مكاني

- افعلوا أنتم ما يحلو لكم، أنا لن أفعل

- إلى أين ؟

مشيت وأنا أقول

- تدور حياة الإنسان في ثلاث حلقات؛ الفوضى والصمت والهدوء، في الفوضى نحن نتخبط ونصطدم بهيجان ذواتنا على الحياة، فنكتشف ونرى وندرك ونجرب ونمتص اللحظات بقوة، فنخلقنا مجدداً، وفي الصمت نكون قد وصلنا إلى محطة الحكم والانتظار، نحكم على ما عشناه، على مشاعرنا، وعلى مشاعرنا التي تمد أياديها إلى مشاعرنا، ونتحسس الروابط التي تعلقنا بالعالم وبذواتنا، فنرى صورتنا الأقرب إلينا ثم ننتظر عما سيحدث لنا بعد ذلك، أما الهدوء فهو المكان الذي نفهم فيه كيفية وجود الطمأنينة وكيف علينا أن نشعر بها ثم يأتي الملل أو النسيان أو القبح أو الخيبة أو الشك أو الفراغ لنذهب إلى حلقة أخرى، وهكذا نتنقل بين هذه الحلقات

كنت قد ابتعدت عنها فنظرت خلفي إليها وقلت

- سأذهب إلى فوضاي

نظرت إلي مع ابتسامة لطيفة

- لا تنس، البقاء للمتلائم.

الفصل الحادي عشر

أطلقت قدماي في الشوارع، كنت تائهاً، منفصلاً عن المكان، أعرف إلى أين أنا ذاهب لكن لا أعرف لماذا، ثمة فيَّ ما لا أريد رؤيته، وثمة حولي ما لا يرى، المحلات والوجوه والأصوات والألوان والريح، خلف كل ذلك توجد حفرة عميقة لا قعر لها، وقد وقعت فيها وأنا فيزيائياً لا أزال موجوداً في المكان، ذلك الحدث الذاتي الغريب يحدث لي بين الفترة والأخرى، أقع ثم أخرج وكان شيئاً لم يكن، ثم مع كل خروج أعرف إنني لم أعرف شيئاً عن الحفرة هذه المرة أيضاً، وبعد عدة شوارع عدت إلي منهار القوى، جلست في مقهى وشربت الشاي ثم قمت أمشي نحو المكان الذي أقصده، نظرت في وجوه البشر حولي وتأملت، إنهم مقيدون بما يعرفونه، تلك الأفكار التي وضعت في رؤوسهم حتى يمارسوا مصالح من هم فوقهم وليكونوا على يقين بما يعرفونه، إنهم ذاهبون ضمن حدودهم، في زنازينهم الاعتقادية المغلقة، لا يعرفون شيئاً عن اللامعرفة، متوهمون في التجربة، محكومون بالأحكام المصنوعة مسبقاً، يعيشون الخديعة، يتنفسون الوهم، يمشون وهم ليسوا هم أو فعل

المشي مجرد عادة بيولوجية عندهم، الفرق بين البشر وبين الخراف هو إن البشر يعتقدون أنهم ليسوا بخراف، ضربت رأسي بقبضة يدي ونظرت مجدداً، فرأيت اللحوم تمشي، عضلات، أعضاء، شرايين، دماء، تتحرك وتصطدم ببعضها في مجسم جلدي واحد، ثم رأيت الجراثيم، ميكروبات، فيروسات، تثرثر عن مشاريعها، ثم خلايا تتقاذف حول بعضها، ثم ذرات عشوائية هائجة، ثم فوتونات، ثم لا شيء، خارت قواي أكثر، استندت على الحائط في نوبة ارتياب فظيعة، كنت أرى كل شيء بعيداً عني بعداً مهولاً، وغريباً عني غربةً حادة، جلست على الرصيف وجسدي يتعرق بتوتر عالي، شعرت بوحدة تتعالى على اللغة، ماذا أفعل هنا؟ لم يجب أن نوجد؟ ما هو الوجود؟ أين الحب؟ لم تكن أسئلة تنتظر الأجوبة، بل كشفاً عن الغرابة التي تلتصق بالأشياء، ثم ما هي الأشياء؟ أشعلت سيجارة بفزع وقمت أمشي مع هذه الغرابة التي سيطرت علي، مشيت طويلاً وفي شوارع عشوائية حتى عدت أقل ريبةً وفزعاً، سمعت الأحاديث التافهة التي تخترق الأجواء باهتزازتها، سمعت اللعنات المكتومة خلف الملامح، سمعت الظنون، الخطط، المشاريع، الحسابات، الاتهامات، الصراعات الداخلية، الذكريات، الانتماءات، الكراهية، العقائد، الهوس، القلق،

الكآبة، السأم، الخيبة، فكرة الانتحار الصاخبة، وكنت قد وصلت إلى المكان المقصود.

الفصل الثاني عشر

نظر إلي، دون أن يلتفت تماماً، نظرة متسلطة وقحة، بجانبه كان ثمة امرأة في الثلاثين، جميلة لكن حزينة، في نظراتها إلي ثمة رغبة صارخة في شيء ما، خجولة لكن عنيدة، قلقة لكن ضجرة، قال لي بعد أن تمثل عدة حركات ذكورية متعصبة وبعد أن رمى عدة نظرات مغرورة على المرأة

- تريد عملاً إذن!

شردت للحظات أحللهما، إنه يحاول إشباع شعوره بالضعف أمام المرأة، لا يعرف كيف يقول لها "أحبك" ولا يعرف ما قيمة ذلك، يعتقد إن طريقته السلطوية البدائية كفيلة لجذبها وإقناعها والسيطرة عليها، قد تكون زوجته، إذن هو يعرف، دون أن تقول له، إنه لا يعرف كيف يكون شريكاً جيداً، لكنه يسعى بجهله إلى تغيير صورته والتخلص من عيوبه، لكن إن كانت المرأة الذكية فهو الآن مثير للشفقة والسخرية، وكل ما يفعله يجعلها تبتعد عنه أكثر، لن يكون ذكاءها لصالحه، سيتعذب كثيراً، سيشقى في صراعات داخلية لينكشف جهله بالإدارة والتواصل العاطفي الخلاق أكثر فأكثر، وما أن

يعرف كل ذلك سيحقد عليها، سيصبح مهووساً بحقده، ثم سيبرر حقده بخبثٍ يجعله هو أيضاً لا يرى حقده، وقد يعذبها كردة فعل أنانية، وربما في الأخير يتركها، لكن لن يكون ذلك بسهولة، لن يتركها إلا بعد أن يشبع حقده، ولن يشبع إلا بعد أن يجعل من نفسه الضحية لا الجلاد، سيعيش دور الضحية بأداء رهيب، سيحدث الجميع عنها، سيوزع عليها اتهامات كثيرة، سيحرف كل التفاصيل التي حدثت بينهما ويجعلها في صالحه هو، ثم سيقنعها بأنها هي الجلادة، وهي ستتعب وتتقبل ذلك في سبيل خلاصها منه وربما تقتنع بذلك، حينها سيشعر بالانتصار لكن قد لا تكون هذه هي النهاية بينهما، فقد يستغل قبولها ليجعل منها تابعة له، سيسحبها كلما أراد ذلك، سيحول علاقتهما الميتة إلى لعبة، وسيطلب مطالب تافهة حتى يستمر في شعور النصر، أما النهاية الحقيقية فلن تحدث إلا بعد أن تقول له "لا"، لكن ماذا لو كانت المرأة ليست ذكية، أي ماذا لو كانت جسداً خاضعاً ل "نعم" أمامه، أي تابعة أو جارية أو شيء للاستعمال، سيصبح مغروراً شيئاً فشيئاً حتى يصاب بجنون العظمة ويرى المرأة شيء مثل أي شيء يجب إدارته وفق رغباته، وهي بغبائها أو بخضوعها الأعمى للمال والمكانة الاجتماعية وللذة الخضوع ذاتها ستصبح صورة عنه وجهازاً سيتعطل كلما أهتز في الذكر شيء ما، لن توجد أنثى أو أنوثتها ستكون

غلافاً سطحياً لذكورة متضخمة، ستفكر كما يفكر، ستعيش ضمن حدود ذكوريته، ستتنفس من أنفه، ستصل إلى ذروة نشوتها الجنسية المصطنعة مع وصوله إلى لحظة القذف، ستكون أنانيّتها -التي هي وسيلة من وسائل الإمكان الوجودي- أنانيته هو، وهكذا وبعد مضي سنوات وربما بعد إنجاب أطفال ستنفجر فجأةً قنبلة الاختلاف أو ستتعب من تمثيلها على جسدها الأنثوي، وهنا يبدأ الشوط الثاني، شوط العنف النفسي بين الغباء العنيد والذكورية المضخمة، لن تكون الكراهية شعور عادي يحدث في أية لحظة بل فتيل قنبلة ستستمر لأيام وأسابيع وربما لشهور، ومع كل كراهية تحدث كردة فعل على الواقع أو على حدث/موقف تافه سيخدم النفور الطويل الذي سيكون طريقة التواصل الأساسية بينهما، كل ذلك في جسد ذكوري واحد، أي لن يكون ثمة عاطفة مباشرة، العاطفة قد تم كبتها تماماً لكنها هنا ستكون هي خلف كل شيء، أي خلف الذكورية الغبية العنيدة المضخمة ثمة عاطفة مهولة، وهي ستحدث كل الصراعات الكبرى بينهما/بينه وبين نفسه، سيتعذبان بفظاعة، هو سيحقد على نفسه، وسيكون الجلاد والضحية معاً، سيهرب من نفسه بالخيال أو بالعمل أو بالثرثرة أو بأي شيء، سيهرب كمسجون يتخيل وجوده في غابة مفتوحة الحدود، سيركض ويركض لكن دون أن يصل إلى شيء أو سيعود دائماً إلى

نقطة البداية المحيرة الفظيعة ولن يفهم ماذا يحدث له ولحياته، وهذا سيجعله أكثر حقداً وأكثر غياباً وأكثر هوساً بالجري، لن يرتاح لا هو مستيقظ ولا وهو نائم، وقد يجد أحداً لينقل إليه هذا الصراع، وإن وجد فهذا سيشعره براحة وهمية ويجعله ينقل صراعه إلى كل من يلتقي به ليدمن لعبة الاختباء في نفوس البشر، وبعد أن يدمن سيصبح بعيداً جداً عن مشكلته الأساسية والتي هي إنه مجروح الكبرياء، ولا يتقبل ضعفه ونقصه، ولا يتفهم أنوثة المرأة التي معه، الأنوثة التي انتقلت إليه بعد أن صارت علاقتهما شاذة بتواصله الحاد مع نفسه فقط، ولا يعرف أن ثمة مشكلة فيه، أما هي فستكون الزيت الذي يزيد النار لهباً وتوسعاً، لن تمتلك إرادتها ابداً حتى لو استطاعت أن تنفصل عنه، ولن تفعل ذلك لأنها اختارت نفسياً أن تكون في هذه العلاقة المريضة، ستشعر دائماً إنها بلا إرادة وذلك سيجعلها أكثر جشعاً لإشعال النيران في كل فرصة ممكنة، بل قد تذهب أبعد فتجعل كل شيء فرصة في سبيل انتقامها الجنوني مما تريد نسيانه، أي شعورها بفقدان الإرادة، وربما تعاند أكثر فتطلب الموت على يده في سبيل إشباع شعورها المكبوت، لن يوجد بينهما سوى ثلاثة احتمالات، أما أن يتدخل أحد ما فيخرجهما من هذه العلاقة التي ستسيطر عليهما حتى وهما بعيدان عن بعضهما، لكن سيكون ذلك أقل ضرراً،

أو ستقتل هي ويذهب هو إلى السجن، أو أن يعتادا على هذه العلاقة التي رغم كل ما فيها من فظائع هي علاقة لذيذة ومناسبة لهما، وذلك سيحتاج منهما قدراً من الذكاء التلائمي، هكذا ذهبت طويلاً في تحليلاتي النفسية الهستيرية بينما كان يحملق في وجهي، ثيابي، قامتي، وقفتي، أشعل سيجارة ببطءٍ متعالي مستفز، نفخ دخانه في وجهي، نظرت إلى وجهه بقرف فشعرت أن الحب لم يوجد قط، كنت أريد أن أنجو بذاتي من هذه المصيدة، أن أهرب من وجهه ومن وجه كل من يشبهه، إنه بدائي العقل، يثير الغثيان، ومن جهة أخرى لديه شخصية العامل، أي ولد لعائلة عاملة قنوعة بعبوديتها، تتلذذ بعبوديتها، فانتقلت إليه تلك أخلاق، إنه أجبن من أن يتمرد على ما تربى عليه، وأجبن من أن يمتلك فكرةً تتعارض مع قيم عائلته، عاش حياةً كلبية بين العمل الشاق والترفيه السخيف، ولأنه أستمر في الطريق ذاته صار لديه معمل صغير يعزي به عذابه عن النقص الذي عاشه كل تلك السنوات في سبيل تلك الأخلاق البالية، تلك الأخلاق التي يرى بها ذاته ووجوده والوجود بأكمله، تلك الأخلاق التي يجعل منه عبداً يحب عبوديته المادية والذاتية والاعتقادية، قاطع أفكاري فجأةً عندما أشار إلي بالجلوس، جلست بهدوء منتظراً ما سيتفوه به

- تريد عملاً إذن!

هز رأسه وقال بتكرار مراهق ساخر، لقد عرف إنني فقير، أقل منه مرتبةً وقيمة، حسب تصنيفه المادي، إنه مخدر بمجموعة هائلة من الاعتقادات التي تجعله يعتقد إن كل ما يعرفه عن النظام البشري صحيح تماماً، فمن ميزات النظام البشري إنه يجعل كل شخص مدجج بيقين عميق ومتصلب عما يعتقده، ويجهل تماماً إن التصنيفات والاعتقادات التي تشكلت في عقله من الممارسة والتأثير هي تداعيات للنظام البشري الذي يعيش فيه والذي تم صناعته من النخبة الحاكمة والمؤثرة ورؤوس القوة وعباقرة الكلمة والسلطة، كلما كان الشخص جاهلاً بجهله كان أقوى وأفظع يقينا، مثل هؤلاء لا تستطيع أن تناقشهم في شيء، مع كل اختلاف بسيط سيتحول إلى وحش متسلط وحاقد، وإن كان في سلطة ما فهو سيستغل ذلك ليفرض مبدأ السيد والعبد فوق مبدأ الاختلاف الطبيعي، لقد تطورنا كثيراً في الحضارة لكن نظامنا البشري لا يزال يغلب العقل بالفائدة والعادة والأثر، ولهذا لا يزال الملايين من البشر يعيشون بأدمغة قديمة، إذن هذا الشخص سيتسلط علي بطريقة مؤذية كلما عرف إن لدي عقل تطور أكثر من عقله، سيحقد علي إن لم يستطع رد الحجة في نقاش ما، وربما ينتقم مني بطرق غير مباشرة،

إنه مسجون في واقعية سخيفة، كل تأويل يسمعه عن حدث ما يتحول في دماغه إلى حقيقة مطلقة، كل جواب سلطوي يسمعه يصبح إلهاً يستحق العبادة، لقد تم تخديره بالتربية في الطفولة ثم بالمناهج التلقينية في المدرسة، وطبعاً بالثقافة المجتمعية والعادات والتراث والخطاب الحزبي والمبادئ العقائدية والممارسات والطقوس..إلخ، لقد فقد ذاته في سبيل أن يكون ملائماً في أسرته ومجتمعه ودولته، إنه دون عقل أو لا يمتلك القدرة على التفكير، صنعوا له عقله وقالوا له "انطلق وأنت تشعر إنك حر"، فلم يكن هو ولا كان حراً، إن كل هذا التحليل الانطباعي السريع بدأ يسرد في عقلي مجرد دخولي إلى المصنع ثم إلى مكتبه بغليان وجودي ساخط.

قلت وأنا لا أدري من الذي تكلم عني في داخلي

- نعم، احتاج إلى عمل

أطلق ضحكة خبيثة، أطلقها بوقاحة، دون مراعاة وجودي، كأنه تقصد ذلك، شعرت حينها بالغثيان من الوعي البشري كله، إنه يستغلني ليرد على كل المدراء الذين تلقى منهم الإهانات في سنوات عذابه كعامل، حين كان عاملاً كان يتعذب حين يتلقى الإهانات والآن هو يرى إن السلطة السليمة هي أن يوزع الإهانات على العمال، لقد تحول إلى من كان يكرهه دون إرادة، كيف

يمكن أن يكون الإنسان أضحوكةً هكذا، إن السلطة الطاغية تحول حتى الضحايا إلى طغاة، ومثل هذه السلطة -إن كانت دولة أو ثقافة أو قيم أو أخلاق أو دين أو مؤسسة أو عائلة أو فرد- تشوه وتنهش وتبعد وتمنع لذة الحياة، قالها بعد أن عذبني بشكل قذر

- لا نحتاج لعمال!

خرجت من عنده وأنا فرح، كأنما خرجت من السجن بعد عقود، لكن ما أن وصلت إلى الخارج حتى أدركت وهم الحرية.

الفصل الثالث عشر

وقفت بجانب مجموعة من العمال أمام باب المصنع وأشعلت سيجارة، كنت مخنوقاً بسلاسل الكره والغيظ والسخط والسأم، لم تمر عدة ثواني من الصياح المكتوم حتى وجدت ذهني مشغولاً بأحاديث تلك المجموعة، لم تكن لتلك الأحاديث قيمة أو منفعة، مجرد ثرثرات سخيفة كل السخف، لم أستطع تجنب التفكير فيهم، كيف يفكرون؟ كيف يعيشون، لماذا يعيشون؟ ما الأسئلة التي تؤرقهم؟ هل حقاً لديهم أسئلة خارج ميدان غرائزهم؟ هل هم عمال لأن عقولهم هكذا أم أن عقولهم هكذا فأصبحوا عمالاً أم كلا الاحتمالين معاً؟ هل يمكنهم أن يفهموا إن ثمة كائن ما في مكان ما منشغل بسؤال الوجود؟ كل ما سمعته من كلامهم يمكن أن نقول عنه إلهاء، إلهاء غريزي، إلهاء سلطوي، إلهاء طبقي، إلهاء قيمي، إلهاء ترفيهي مبتذل، إلهاء وجودي يخفي عنهم الوجود، إلهاء شهواني يشوه سؤال الحب.

الفصل الرابع عشر

صرت فجأةً مدفوعاً بطاقة خوائية نحو الجنون، كل تلك الأمور، الفروض، الصفات، الحركات، المقاصد، الأحداث، الاشتباكات، تحولت إلى دوافع مغروزة في نفسي لأبتعد أكثر، لأرمي خلف ظهري الحياة كلها، وليس ثمة سوى الجنون كأرض راحة، لا يمكن أن تقال عن هذه المصيدة حياة، لا يمكن بتاتاً الارتباط بجمالية بما يستحق أن يُرفض بقوة، والرفض هنا ليس قراراً إرادياً، لا إرادة هنا، إنما فزعٌ من كون الواقع هو هذا الواقع، وإنه المحرض على أن يكون المرء مجنوناً على أن يكون واقعياً، إن يجر مع هوى الجنون المحتوم بموقف الرفض على أن يختفي في دهاليز حفرة محفورة للحمقى المشبعين بالقبول الأعمى والطاعة المهينة والبهجة الخادعة، ها هنا، بين الجنون والواقع، لا يشتغل الحب إلا كمساعد خبيث للجنون، فهو يدفع المرء ليتخلى أكثر عن وجوده الفعلي، قد يكون ذلك لذيذاً ومتوافقاً مع الجنون في البداية لكن خبثه يظهر في المراحل النهائية حين يكشف عن واقعٍ متوحش في داخل جسم هذا الحب المساعد، حين يشعل الحب الأضواء على الدائرة المغلقة التي كان يسكنها الضحية طيلة كل تلك الفترة الشعورية، لقد كان

مخدوعاً لأنه رفض أن يُخدع بالواقع، والآن، وبعد أن أستيقظ، في أية أرض من أراضي الجنون البائسة عليه أن يسكن

الفصل الخامس عشر

عدت أفكر بعد أن جلست في مقهى قريب من ذلك المعمل، وبعد أن هدأت بعض الشيء، في العاديين، هؤلاء الذين تجري في أجسادهم برودة تنقذهم من حمم المفارقات، إنهم مقيدون بأرضية قوية، كأنهم في كون آخر، لا يسمعون شيئاً عن جدل ما يحدث هنا، علينا تقدير أكاذيبهم الذاتية الرخيصة، حقيقيةً علي فعل ذلك من صميم قلبي، فهم يستحقون التقدير على محاربتهم للخزي الذي يتفشى في العقلاء حين يدركون جهلهم بالنظام الكوني والنظام الإنساني، كم هم أقوياء حين يرخصون أرواحهم في عيش حيوات عملية رتيبة وتافهة، ويموتون هكذا، كم هم أقوياء بزيفهم حين لا يهتمون بمعرفة الحياة والإنسان والموت والحب، أما نحن الضعفاء، نحن الذين نعيش بالبصيرة، أرواحنا ممتلئة بالهزيمة والحيرة والمفارقات، نحن مرضى، أورام سرطانية تفكر في الخلود والماوراء واللغز، أورام تحاول الطبيعية استئصالنا من الجسم البشري السخيف، هاهنا أيضاً يلح علي سؤال الحب، أي الفئتين تستطيع أن تقترب من الحب مسافة جيدة؟ أو أي الفئتين تعيش الحب بينما تعيش الفئة

الأخرى شيئاً آخر؟ ثم ماذا نقصد بالحب حين نقسم البشر إلى فئات؟ السؤال الأكثر عنفاً هو كيف نحب؟

الفصل السادس عشر

مرت علي ساعة وأنا أراقب باب المعمل، كنت في انتظارها رغم أن احتمال خروجها من أجلي ضعيف جداً لكنه وارد، وذلك لفرضيات نفسية كونتها عنها، أتحدث عن زوجة المدير، الحزينة التي كانت تفكر في شيء ما أجهله، ما حدث هو إنني غمزت لها دون أن ينتبه زوجها، لقد فعلت ذلك لأنتقم منه، لأرد كرامتي، فعلت ذلك بكل إصرار وتصميم، ثم إن المرأة جميلة وتستحق المخاطرة، وأنا كنت أريد أن أذهب بي إلى شيء آخر يبعدني عني، عما يشغل قلبي وعقلي، وحدث ما كنت أريده، خرجت المرأة وهي تلتفت بفزع حولها، مرت بجانبي وأشارت إلي لألحق بها، قمت خلفها بعد أن مشت ما يقارب الشارع، وبقيت وراءها لأكثر من عشر شوارع، كانت مرعوبة بشكل يثير الضحك، قمت بتهدأتها بحديث تافه يبعد عن قلبها خوفها من زوجها، ثم ذهبنا فوراً إلى بيتي، وما أن وصلنا حتى كشفت عن شبقها الصارخ، فحولت كرهي لزوجها إلى حيوانات منوية وقذفتهم في فرجها مرتين، وكنت أريد أن أفجر فرجها للمرة الثالثة لكنها منعتني من ذلك إذ صارت نصف فاقدة للوعي جراء وصولها المتعدد إلى لذتها المزلزلة الكبرى، ثم بعد ذلك

تحدثنا قليلاً، كانت سعيدة سعادة غريبة، كأنها لم تتذوق قط طعم الحياة على السرير، كأنها ولدت في تلك اللحظات، ولأنني كنت أكبت على شيء ما في داخلي أشبعت عريها بالقبل، ليس حباً طبعاً، ربما انتقاماً من الوجود كله، انتقاماً يشبه انتقام العبد من السيد، انتقام الضحية من الطاغية، وبعد تلك اللحظات التي اشتركنا بها دون أن نكون معاً أو كنا معاً بطريقة غير سوية، حدثتني عن حياتها، كشفت لي المرأة البلهاء التي تسكنها، المرأة التي تفخخت بقيم الطاعة والقبول والرضا والاستسلام، عاشت في عائلة مستبدة الأخلاق، فتكونت امرأة ضعيفة القلب والعقل، باردة الحس، معدومة التفكير، خالية من حس المسؤولية وحس الحرية، منغلقة الآفاق، امرأة تفننت في الخدمة، عاشت وفق ما أرادتها العائلة، تزوجت باسم وقرار عائلتها، مثل أي منتج بلا روح تم بيعه لمستهلك، فخرجت من كهف عائلتها إلى كهف زوجها، ولا تزال غير موجودة في الحياة، أي لا تزال دمية تقوم بحركات مبرمجة مسبقاً، فقط تغيرت المرحلة، ولكن بعد كل تلك السنوات التي لم تعشها كانت تتحدث عن حياتها بشيء من الريبة، وكأنها أخيراً ظهرت عليها علامات اليقظة الشخصية، إلا إنها في الوقت ذاته لا تزال على يقين فظيع بالأخلاق التي تعودت عليها، وهذا ما جعلها في حرب داخلية شرسة

- قذرة، أنا قذرة، أشعر بالآسف علي، كيف سأعود إلي؟!

كانت ترمي على السقف نظرات ندمٍ سخيفة، ويدها اليمنى على فرجها ويدها اليسرى على فمها، كنت أنظر إليها وأنا أفكر في الأسلوب المناسب للحديث، الكلمات المناسبة، الأفكار المناسبة، قلت بتردد وشك ذاتيين

- هذه أنت، التي كانت هنا قبل قليل كانت أنت، كانت أنت ربما أكثر مما أنت الآن أنت

نظرت إلي بتعجب كبير، كأنها تعجبت من نفسها، أكملت أقول مع تنهيدة وبشيء من اللامبالاة وأنا ألعب بحلمتها المبللة بالعرق واللعاب

- لا أريد أن أقول كيف يجب أن تكوني، أنت تعرفين ذاتك وحياتك أكثر من أي أحد آخر، لكن ما أود قوله إن الحرية مخيفة، لا أقصد أن ما قمنا به الآن يدخل ضمن طقوس الحرية، وقد أكون عبداً أكثر منك، أقصد إننا منفيون عنا أكثر مما نعتقد، ولا أقصد أن الحرية شيء خيالي، ربما تكون كذلك قبل أن نحولها إلى مبادئ وأفكار وأفعال، أقصد إنها ضرورة، الحرية يا سيدتي أداة لعيش حياة لا ندم فيها، ولا يندم إلا من كانت بداية طريقه ليست مرسومة بالإرادة.

فكرتُ كثيراً بما قلته، هل أنا أيضاً كنت أنا؟ وهي فكرتْ كثيراً، ملامحها كانت تتغير بشكل لا يمكن تفسيرها، وكنت أنا شيئاً فشيئاً أنسى ذاتي وحياتي، فاجأتني فجأةً بسؤالها القوي

- ما هي الإرادة؟

ثم اسرعت تهمس بخجل وذنب وحيرة كأنها رأت سؤالها سخيفاً

- لا أستطيع، ربما لا أريد، هل أنا حقاً أنا؟ من أنا؟

كانت مثل حلبة تدور فيها عراك طاحن، شعرت تجاهها بالشفقة والحنان والعطف، فقلت بنبرةٍ صادقة

- كثيرون عاشوا حيوات مزدوجة، منفصلة، بأكثر من شخصية، ربما يكون هذا حال مؤقت لك إلى أن تصبحي من ستكونينها في المستقبل، لكن لكل حل مشكلة، فالازدواجية تخلق نفاقاً لا يمكن لمن لديه صدقاً حاداً أن يتحمله

صرخت على نفسها وهي تقول

- لست صادقة، لم أكن صادقة في أعظم لحظات حياتي، النفاق هو الذي عذبني ويعذبني الآن مع كل عذاباتي الأخرى

رغم أنها لم تكن مركز أفكاري إلى أن شعورها عذبني أيضاً

- إذا مشكلتك الآن هي الحيرة، لديك شخصيتان، ربما يفرض عليك المستقبل أن تقتلي إحداهما، لكن كوني واعية بسعادتك، سعادتك هي التي ستساعدك في الاختيار، لا واقعك الذي فرض عليك.

نظرت إلي بحزنٍ يكسر الحجر

- أريد الحب، الحب كل سعادتي، أنا بائسة وكنت بائسة طيلة حياتي، لم يحبني أحد كما ينبغي، دائماً كان ثمة نقصٌ قذر ودائماً كان بيني وبين الحب مسافات وظلام ووحوش، كثيراً ما هربت من هذه الحقيقة لكنها ظلت موجودة لتصرخ في مراياي

صرخت على نفسي أقول

- لست طبيباً، أنا مثل الجميع، مريضٌ يجهل مرضه، أعيش في البحث عن أسرار وخفايا هذا المرض، أو عن أساليب كشف جديدة، أما في الحب فأنا عكسك أهرب من الحب، أرى فيه تعاسةً قهرية، لعنةً شريرة، لغزاً حاداً، مقطوعةً زلزلت أرض الموسيقى، أما أنا فكلما وقعت في الحب عرفت أن حياتي لم تكن تضاق

- أريد أن أكون طبيبة

ابتعدت عنها وقلت بصوتٍ يشبه الصراخ

- كل ما تريدينه هو المجهول، لقد وقعتِ في فخه، لكن معك حق، إذ يؤذينا المعلوم، الواضح، الفصيح، نشعر معه بالبرودة، بالجفاف، بالسكون، نشعر معه بلا معنى القيمة الوجودية، فنذهب إلى الحب، المجهول الذي يجعلنا نقامر دونما معرفة، وإن وجدت هذه المعرفة سنتأمر عليها بشكل لاواعي حتى ندخل كلياً في تلك اللذة المتمردة، لقد اخترتِ دون أن تدري طريق الجنون.

- لكن لم المجهول؟ أليس الحب هو ببساطة أن تبتسم؟

تنفستُ بحزن

- تهزنا الأشياء التي نجهلها، حين يدخل إلينا الحب نصبح أكثر جهلاً به فيهزنا بقوة أعنف، إن الحب مبدع في أنانيته وغروره، يمارس أفظع دبلوماسية حتى لا نعرف عنه أي شيء، إذ ما أن نعرفه حتى يتحول إلى أكثر شبح مرعب، استطعنا رؤية كل شيء مرتبط بالحب بشكل علمي أكثر، لكننا لا نزال نجهل ما هو الحب، وذلك يعود إلى أن الحب لا يمكن أن يكون موضوع بحثٍ علمي، وإلى أن العلم لا يستطيع أن يفكر في الإنسان من داخل أوهامه القيّمة، الحب ينظر إليه باللغة والتجربة والخيال، كما الدين، كلاهما يحتاجان إلى انفتاح أعمى، أما البسيط فهو ما لا

نعيشه من الداخل، ربما هو خدعة بصرية أو كذبة مشتركة بين الواقع والخيال

مددت ساقيها، رمت ذراعيها على السرير واسترخت تحلم

- أريد حباً شفافاً رقيقاً بسيطاً، مثل حبة مسكن أو كأس ماء أو لمس يد حنونة، أريد حباً عاقلاً يبدأ بصباح الخير وينتهي بتصبحين على خير، يبدأ بقبلة فرحة وينتهي بقبلة فرحة، يبدأ بابتسامة وينتهي بعناق أبدي، أريده مثل حوار عن شراء الثياب وطبخ الطعام وحالة الطقس، أريده باباً للطمأنينة وغرفةً لممارسة الجنس، هذا هو الحب الذي أريده، هذا هو علاج كل جروحي.

كنت مدركاً لغياب الحب في حياتها، كانت في مرحلة ما قبل إيجاد الحب، في تلك الحالة الطفولية الساذجة، قلت كمن أكمل كل مراحل اللعبة

- كل الذين ربطوا الحب بالجمال والقداسة رفعتهم الطبيعة، هم وحدهم الذين مارسوا سياسة أقوى من السياسة، لكن الحب مطرقة تكسر كل النظريات، تراه تارةً يكون السبب الأقوى للسعادة وتارةً أخرى عكس ذلك تماماً، إن الحب يخلق أفظع تعاسة وأعظم سعادة، وأحياناً يخلقهما معاً، وحتى إن تخلصنا منه لنستسلم لشعور آخر،

لفكرة أخرى، ندرك إننا لم نكن نتعارك إلا مع وهم غيابه، إنه حاضر أبداً، مثل شعور الاغتراب، أو مثل الظلم، أو مثل الهوية، كأنه مرآتنا في هذا الوجود.

ثم نظرت إليها بحدة

- يا سيدتي ليت الحقيقة تطبيقٌ يبرمج وفق خيالك فننتهي كلنا من هذه العذابات العنيفة، ربما، ربما يكون الحب هو دعوة إلى عذاب أعظم من العذاب التافه للحياة العملية، خضوع آخر للغياب الذي يخفي العزاء الأصيل، طمأنينة أخرى تنقذنا من ريبة الوجود، فتنة من فتن الحقيقة المستبدة، فالحب في جوهره هو مشكلة السعادة، العاشق يتأوه وهو يرى المسافة التي بينه وبين السعادة، السعادة التي هي مجاز عن لحظة اتحاده مع معشوقته، هو مغيب عن العالم بأكمله أو العالم سينكشف حين يصل ويحصل على محبوبته، لقد أغلق كل أبواب الطمأنينة واختار موقعاً واحداً للسعادة الكاملة في خياله، لم يكن سعيداً ولأنه لم يكشف لنفسه ذلك هجن صورة السعادة البعيدة بما يسمى الحب.

- كأنك تقول إن كل الذين يحبون الحب سيكرهونه؟

كنتُ بشكلٍ لاواعي أكمل فكرتي

- المعذَّب هو الأقرب إلى الحب، إذ هو يبحث عن لغة تكشف له صمته الحاد وتجعله يتجاوز جهله بالأسرار غير المفهومة للعذاب، والحب هو بوابة السماء الفسيحة التي تمتص كل ما في الإنسان .

ثم عدت إليها وقلت

- كل من تعرف على الحب سيتعذب باللهفة والانتماء ثم بالكره والحقد، ثم إن الحب كان ولا يزال وسيلة لأقذر الغايات، ربما غاياتنا قذرة فنخفي عن نفوسنا هذه القذرة ونضع الحب قناعاً جميلاً لهذه الغايات، وربما نحن أشرار سيدتي، ولأننا طيبون أيضاً لا نستطيع تقبل شرنا فنحاول الوصول إلى الخير الذي نريده بأدوات الشر دون أن نقرأ القصة جيداً، وربما نحن نشعر بالفراغ أكثر مما ينبغي، وربما نحن عميان بضباب الخيبة، وربما نحن بؤساء

كنت بأفكاري شبه غائب عنها، تركيزي لا يكاد يتحرك سوى حول الحب، الحب في ذاته، وبطريقة فوضوية لا تكاد تؤدي إلا إلى الخواء، نظرت إلي نظرات تقول "عما تتحدث!؟ أنا لا أفهمك!" أغمضت عيناها وقالت بتعب

- لم لا يعيش الجميع بخير وسلام وحرية ورفاهية؟

وأنا الأخر كنت متعباً، فتمددت بجانبها وقلت

- هذا سؤال بسيط جداً لكن أين الجواب؟

الفصل السابع عشر

كل الأفكار والرؤى من وهم التجربة، اللذة وحدها تختار للحظة ما يناسبها.

الفصل الثامن عشر

استيقظت مرعوباً كطفلٍ فقد عائلته، كنت قد رأيت كابوساً لم اتذكره لكنني بعد عدة لحظات اكتشفت عودتي إلى الكابوس الحقيقي، كان بيتي خالياً من أي أحد، لم أصل إلى يقين عما حدث قبل أن أنام، هل كانت كل الأحداث حقيقية أم كانت ضمن قصة المنام الذي رأيته؟ أحقاً جلبت معي زوجة صاحب المصنع؟ أحقاً ذهبت إلى ذاك المصنع؟ الأكثر من ذلك لم أصل إلى يقين بكل الأحداث التي سبقت ذلك، لكن كنت على يقين بشعوري بالخيانة، لم يكن شعوراً سخيفاً، لم يكن مجرد ردة فعل على فعلة امرأة حمقاء، كان أكثر من ذلك، كان شعوراً مضاعفاً يشل إرادتي على خلق مستقبل خارج القصة، يسجنني داخل ما صرته، يقيدني بما حدث وما سيحدث، الأمر مثل دوامة مجنونة لا يمكن الفكاك من جاذبيتها العالية، والغريب في شعوري إنني، بطريقة ما، وبتداعي ذاتي، بعد ذلك بقليل، شعرت إنني كائن قذر، أنا قذر، لا أستطيع الاعتراف بذلك لكنني أعرف ذلك، لا أستطيع الاستدلال على الأدلة لكنني على يقين من ذلك، رغم كوني الضحية في القصة إلا أنني خبيث، لدي عقل خبيث يستطيع تغيير القصة لأكون فيها الضحية، لكن لا أدري حقاً هل يقيني

بذلك محض جلد ذاتي أم حقيقة، ثم إنني لا أعرف كيف يمكن الوصول إلى الحقيقة، هذا لو وجدت طريقة، لذلك، أنا أكتب الحقيقة التي أنا أراها وهذا يجعلني في شك دائم في كل قرار أتخذه وفي كل فكرة تدعي القوة والجوهرية، لقد قلت قبل قليل إنني خبيث وقذر، هكذا رأيت فقط، مجرد ادعاء شعوري وطبعاً كل ادعاء محتمل أن يكون حقيقة، حسناً أنا كسول أيضاً، وجبان أيضاً، وحاقد وكاره وحاسد وهارب ومبرر ومتوهم وأناني ومدمر، وربما صفاتي هي التي تكون رؤيتي للعالم، فما العالم إن لم يكن تجاربنا وصفاتنا وطباعنا وطبيعتنا الشخصية، ما أريد أن أصل إليه هو أن الحب ربما يكون شيئاً آخر، حالةً أخرى، ماهيةً أجهلها، وإن كل أفكاري عن الحب تقصد وتتحدث عن شيء آخر لا أستطيع تحديده، أي أن قصتي ليست عن الحب، هل سأبحث عن الحب الحقيقي الآن؟ لا اعتقد ذلك، إذ أن المشكلة ستكرر نفسها، والحب الذي سيحدث؛ سيحدث من مجموعة معقدة من المواقف والمشاعر والدوافع والأسباب، أي الحالة الكلية الجامعة بين حياتي وحياة الشريكة الجديدة وشخصيتي وشخصيتها وخيالاتنا وتفاعلاتنا والواقع وتفاعل الواقع معنا، في الأخير سيحدث نوع جديد من هذا الاتصال الغريب وسنسميه الحب ولن يكون الحب، ما هو الحب إذن؟ أرى الآن إن الحب هو تواصل شاذ وفريد، تمرد ذكي، فوضى جنونية،

جريمة بحق الكون، هذا ما أراه ويعني ذلك أنه لا وجود للحب أو ثمة نوع جديد من الحب في كل قصة تحدث بين شخصين وفي الوقت ذاته لا يمكن أن يكون الحب، إن الحب هذا، الذي هو حب و لاحب في الوقت ذاته، وجوده في ضرورته، وضرورته في وجود الأسباب التي تخلقه، وهذه الأسباب ليست مكشوفة أو أسباب متعلقة بأشياء أخرى بعيدة عن الحب، لهذا كل حب هو حب و لاحب، إن كل ما أحوال فعله بهذا التفكير الهوسي هو الاحتيال على ما أنا فيه، رغم إنني أرى في حالتي بلاهة إلا إن قصتي ها هنا صارت ممتعة بالنسبة لي، إذ الآن صار ممكناً أن أكون قاتلاً كما يجب، أنهيت السيجارة التي كانت في فمي وقمت وأنا أعرف مسبقاً إلى أين سيذهب بي جسدي.

الفصل التاسع عشر

كنت أمشي بشكلٍ هستيري، أصابعي في جيبي كانت تتعارك، فمي كان يتحرك بتكرار عصبي، عيناي كانتا تشتمان تفاصيل الأرض والأشياء المرمية هنا وهناك، أصوات أفكار متناقضة في رأسي تصطدم ببعضها وتسقط ثم تولد أصوات أفكار جديدة لتصطدم ببعضها أيضاً، لا شيء كان يبقى سوى خيال مشهدي المستقبلي معها، مشهد الضربة القاضية، مشهد الحركة الكبرى في سيرة حياتي الروحية، ثم صرت أهرول مثل مجنونٍ لديه هدف واحد في حياته ويستطيع أن يفعل أي شيء في سبيل هدفه، أو مثل رجل فقد كرامته ولا يفكر في شيء سوى في استرجاع كرامته المفقودة، كنت اختنق في أنفاسي الضعيفة وأنا محمل فوق نفسي، مردداً في داخلي؛ سأفعلها، الأمر بسيط وسهل، سأخترق بأصابعي عنقها الجميل لينفجر الدم في وجه المكان، ستسقط على الأرض كغزالة صغيرة، ستموت ببطء، وجهها سيكون مدهشاً، نحيبها سيكون لذيذاً، سأجلس بجانبها وأنظر كيف يكون الحق حقاً في تلك اللحظات المقدسة، وبعد أن تذهب عن نفسها سأبتسم للقمر الضاحك، سأبتسم للسماء الواسعة، سأبتسم للتاريخ ولي ولكل الضحايا والمعدومين

والمهمشين، سأعلن تاريخاً جديداً، تاريخاً لا خيانة فيه، تاريخاً يستيقظ فيه المرء وهو بكامل هدوءه، ينام وهو بكامل هدوءه، يعيش وهو بكامل لذته وعبقريته وبراءته، نعم سأفعلها.

الفصل العشرون

بعد أن مشيت بضعة شوارع شعرت أنني على مقربة من جلطة قلبي من هول جنون لهاثي الشعوري نحوها، جلست في مقهى وأكلت شيئاً خفيفاً، شعرت بعد ذلك وأنا أدخن بهدوء نفسي فتح لي باب تأملٍ بريء في الحب، فرأيت إن الرابط الأمتن بين الطبيعة والإنسان هو الحب، أن يشعر المرء إنه في أحضانٍ حنونة وأمينة، أو سيفتح عليه لعنة الغربة المتوحشة، فيعيش موتاً حاداً في كل لحظاته، لكن الحب، الرابط الأمتن بين كل الروابط، رقيق وهش مثل ابتسامة لم يرها أحد، مع أول فجيعة وجودية يتمزق، ولأننا في الحياة، في العالم، في الطبيعة؛ معرضون لكل أنواع الفواجع وعلى مدار كل لحظاتنا الذاتية والواقعية، كما أننا، إلى جانب أن الزمن مؤامرة شيطانية، بحاجة دائمة إلى الكمال المشبع والطمأنينة الدافئة، ولا شيء، مهماً كان صغيراً أو كبيراً في حياتنا، يمكن له أن يكون كاملاً. إن ما يجعلنا نخسر كل أدواتنا الدفاعية ولامبالاتنا القوية أمام أكبر مشاكلنا الذاتية والوجودية هو وعينا بالموت، بالتالي وعينا بحياتنا وكينونتنا، بالتالي لا يستقر جوهرنا الطموح الشبقي الهش الخفيف أمام أصغر زوبعة ريح، لذلك نحن في خطر

فظيع، في فزع عظيم، يمكن أن يُدمر أعظم ما نمتلكه فينا في لمح البصر ونحن لا نزال في غيهب شعورنا بالاحتواء الذاتي، ثم أن العاصفة الصغيرة تجلب معها أكبر العواصف، فنحن بعد أن يتم هزننا في المرة الأولى نتعرى لكل الأشياء بلحظة واحدة، بعبارة أخرى، إننا بعد الاحتراق الأول نتعذب في الأثار وفي أثار الأثار لزمن طويل، وكل لحظة ستأتي ستتشبه بنسبة جيدة اللحظة التي سبقتها، وهكذا نعيش أقذر المشاعر مع أنفسنا إلى أن تحدث معجزة ما أو نموت، كل هذا يحدث لأننا فقدنا ما يربطنا بالطبيعة، الفقدان العظيم الذي نسبة حدوثه شبه محتومة، ولأننا كائنات لديها أداة إسقاط عجيبة ولأننا كائنات خلاقة نذهب بهذا الفقدان إلى شخص آخر، شخص يمكنه أن يعالج بشكل ما هذا الجرح العميق، فنحب الشريك دون أن يكون لنا إرادة في ذلك، أي نحن نحب لأننا فقدنا حبنا لجوهر الطبيعة، وبعد ذلك، بعد هذه الرحلة الشاقة أفظع ما يمكن أن يحدث معنا هو الخذلان، إن يجعلنا الشريك نكرهه، فيصبح لدينا كرهاً مضاعفاً، سيختنق المرء حينها في دخان الكره وهو لا يدري ما الذي يحدث معه، سيكون كتلة جمرٍ هائلة على نفسه، ها أنا أعرف كل ذلك، أفهم كل ذلك، أشعر به تماماً، ورغم ذلك أكمل قصتي وأذهب نحو ما أذهب إليه.

الفصل الواحد والعشرون

كنت أريد أن أصل وألا أصل، أن أذهب وألا أذهب، بقدر ما فكرت في المشهد صار موجوداً في الخيال أكثر من أن يوجد في المستقبل القريب، وصرت بشكل لاواعي أرفض أن يتجاوز الزمن هذا المشهد، كأنني أريد التفكير فيه طيلة حياتي، كأنني أريده أن يستر كل الفراغ الموجود في الكون وفي قلبي، مرت ساعة على جلوسي في المقهى، لأن وقت اللقاء لم يحن بعد عدت أفكر في الحب مجدداً، في المرء الذي يريد أن يكون محبوباً، الذي يريد ذلك بقوة، ولكي يكون هذا المرء محبوباً من شخص آخر على الآخر أن يكون مُدمَّراً، مشلولاً، عاجزاً، مغترباً، رغم ذلك يختار المرء أن يكون محبوباً، وإن كان الآخر معافى فسيحاول جعل الآخر مريضاً، لقد قبل أن يكون مذنباً فقط ليكون محبوباً، وقد يعرف أن شعور الذنب أبشع من شعور الوحدة بمراحل، وقد يعرف أن الآخر لا يحبه لأنه هو هو بل لأن الآخر مريض، وقد يعرف أن شعوره بالمحبة من شخص آخر شعور مؤقت وسيزول بعد فترة قصيرة، وقد يعرف أن حربه القذرة هذه يجب أن تحدث في مكان آخر، وقد يعرف أنه سيكره نفسه كلما نظر إلى وجهه في المرآة، وقد يعرف إنه سيندم على بيع

صدقه، رغم كل ذلك يريد أن يكون محبوباً، لأنه يعرف أنه لن يكون محبوباً كيفما كان ومهما فعل، لأنه يعرف أن الحب لا يحدث دون مسببات وأسباب مادية، لأنه يعرف أن الذات وهم، وحب الذات وهم، وأنا أخترت أن أكون محبوباً لعل هذه الذات تتعالى على ما هي عليه لكنني فشلت، لقد فشلت في محاولتي الأخيرة للنجاة من حفرة الخواء، وفوق ذلك تراكمت على قلبي كل الأثار الجانبية المرتبطة برغبة أن أكون محبوباً، صرت أراني وحشاً ومذنباً ومكروهاً، الأفظع من ذلك صرت أشعر بالندم، والأكثر فظاعة أن حبي لتلك المرأة تحول إلى كره سام، كره أعمى، هذا ليس تحولاً عادياً يحدث تحت شمس الحياة، بل تشوهٌ ذاتي لن يعالج طيلة العمر، لقد فقدت مساحات نفسية واسعة كان من الممكن أن تمتلئ بالهدوء أو بالفن أو بالطمأنينة، وفقدت براءة الثقة، لن أعود قادراً على تقبيل امرأة من قلبي، لن أشعر بالغبطة وأنا أضع قضيبي في فرج امرأة، لن تلمس قلبي ابتسامة امرأة، لن أنام مطمئناً على صدر امرأة، وربما لن تختلط نفسي بنفس امرأة، كلما سأكون في لحظة ثقة ستنقلب معدتي، سيهتز المكان تحتي، سأهرب مني ومن المشهد، إن كل هذه التعقيدات الذاتية لا تفقدني عقلي بقدر حبي لها، هذا الكره الذي أحمله في داخلي ليس كرهاً نقياً، فهو لا يزال حباً، اللب هو الحب لا الكره، لقد أحببتها حتى كرهتها،

لأنني أحبها صرت أكرهها، هذا ما يفقدني عقلي، لا الكحول، ولا المجون، ولا الدين، ولا لهاث السلطة، ولا شعور بالذنب، ولا المخدرات، لا شيء مثل الحب يفقد المرء عقله، وقد تتركز كل هذه الانحرافات بشكل مباشر أو غير مباشر على الحب، لأنه المنقذ الوحيد القادر على سحب المرء من اليأس، إلا أنه، وبوجه آخر أكثر عمقاً، هو الشيطان القادر على رمي المرء إلى قعر هاوية يأسٍ أفظع، الحب هو المشكلة الكبرى في الوجود، أو في وجودي.

الفصل الثاني والعشرون

يجعلني الحب، رغم كل أهواله الحارقة، حاضراً معي، يفتح لي النوافذ لأرى جيداً الغياب الضبابي حول كينونتي، وفي هذا الحضور الهوسي أصبح غائباً عن غيابي، إن الغياب هو الحاضر الجوهري، حضوري معي هو تداعي غريب عن الغياب، ثم ما جعلت غيابي أكثر شراسة هي الخيبة التي تلقيتها من خيانتها لي، والعجيب إن في هذه الشراسة لذة لا تقاوم، كنت أريد، دون أن أكشف لنفسي ذلك، أن أتعرض للخيبة، ذلك لأن الخيبة تحصننا من الملل والضجر والسأم، بالتالي يبقى الحب موجوداً فترةً أطول، بالتالي أكون حاضراً معي، وبالتالي أرى الغياب لفترة أطول، هاجسي ومرضي هما حيث الغياب، معركتي مع الغياب، لا أعتقد أن ثمة معركة أخرى خاضها الإنسان في هذا الوجود سوى معركته مع الغياب، والحب هو الكاشف الأمهر لمشاهد هذه المعركة أو هو السؤال التجريبي عن الغياب، إن المرء كلما أحس وأدرك غيابه بشكل أعمق صار مجنوناً أكثر في الحب، ولأن القصة، عيش قصةٍ باطنية، رفضٌ لنظام الغياب، رفضٌ قاطع غير قابل للطعن، ومن جهة أخرى وجودنا في داخل القصص يحيطنا بهالة عمياء، نندمج مع وهم

وجودنا أكثر، نصبح أقل تفكيراً في معضلة وجودنا، تصبح كينونتنا خفيفة وبسيطة، لا تفتح لنا أفاق تعقيدات الوجود، ونغدو أيضاً قادرين على لمس شيء ما بشفافية وعفوية وتلقائية، إلا أن خلف هذه اللمسة ثمة مكر نفسي على الكينونة، فهو وقوعٌ في مأزق اللاوجود، نغدو مع هذه اللمسة التي تحاول تبرير وجود الغياب، مسلوبي الكينونة أمام القصة، نغدو أشياء في داخل خوارزمية القصة، ثم أن القصة لا تكتفي بذلك بل تطالبنا بقبول كل ما خلف القصة، أي التخلي عن رفضنا ثم تحويل القصة إلى قصة ظاهرية، حتى لا نرى الغياب وهو يمارس أعماله علينا، وفي هذا الجدل الذاتي بين الميل والنفور، بين التقبل والرفض، بين الظهور والاختفاء، بين الحضور والغياب، بين رؤية الغياب وغياب الرؤية، في هذا الجدل الذاتي الحب هو القصة الباطنية الأقرب لحقيقتنا المحجبة، لأن الحب هو الكاشف الذكي لحروبنا العميقة، وحقيقتنا هي في حروبنا، والآن لكي أحارب بجسارة وقوة علي أن أنسى الغياب وأذهب إليها، دفعت ما تبقى معي من مال حساب الطاولة ثم خرجت بهدوء وأنا اعرف أنه لا يكفي، مشيت نحو هدفي هذه المرة بتردد وارتباك وقلق، رغم معرفتي بأن ذلك لن يغير حتمية ما سيحدث...

الفصل الثالث والعشرون

الحب وجه عجزنا المكبوت، قناع عن رفضنا الضعيف، قصة تخفي جبننا وبلاهتنا، الحب إيمان الضعفاء

الفصل الرابع والعشرون

وصلت إلى الشاطئ كمن عاد تواً من الجحيم إلى الحياة، كنت مشوش الذهن، ثقيل الجسد، نظرت حولي عدة مرات لكن لم أستوعب بشكل جيد ما يدور حولي من تحركات ومؤثرات، أشعلت سيجارةً وتنفست الصعداء، الجمع كان قليلاً، ربما عشرون شخصاً، لم أنظر في وجه أحد، الضحكات كانت ترج جمجمتي، أصواتهم الفارغة من المعنى كانت تتغلغل في تلافيف دماغي، القمر كان مضيئاً مثل رصاصة قاتلة، البحر كان هائجاً مثل شخصٍ فقد مشروع حياته، السماء كانت صامتة كعادتها، كل شيء حولي كان متناغماً كموسيقى جنائزية، كصرخة طفلٍ تحت أنقاض مبنى وقع بقذيفة، وكنت مثل هذا الطفل أو أقرب إليه، أكاد أنفجر بصرخة مدوية تقسم الكرة الأرضية لقسمين، مر بجانبي لحظتها الكرسون الموزع للمشروبات، أخذت من يده زجاجة الفودكا وسكبته بحلقي، شربت ربعها بسكبة واحدة، ثم شعرت أن معدتي ستقفز من فمي، نظر إلي الكرسون باستغراب، أشرت إليه بالذهاب، تردد في مكانه قليلاً ثم ذهب تاركاً لي الزجاجة كلها، كان الطقس بارداً لكني كنت كمن يحترق،

حرارة جسدي كانت تشتغل شيئاً فشيئاً، والبخار كان يغطي سماء أفكاري وتخيلاتي، خلعت حذائي، حركت قدماي على الرمل البارد، فتحت عدة أزرار من القميص، استنشقت الهواء البارد بقوة، ثم نظرت حولي بتركيز أفضل، كانت البهجة تغزو الوجوه والأصوات، والنسيان المقصود يحجب عن الجميع حيواتهم، سمعت صوتاً يقترب فجأةً، نظرت جيداً، كان صديقي يبتسم وهو يلوح لي، اقترب وسلم علي

- لا أصدق مجيئك سربست، إنها لمفاجأة رائعة، وأخيراً صديقي، وأخيراً فتحت باباً إلى نفسك.

- ولا أنا أصدقني، حدث ذلك رغماً عني، ربما حان الوقت لتحدث المعجزة.

- من ينظر إليك من بعيد يعتقد إنك لا تستطيع فعل شيء، لكن أنا أعرفك جيداً، وأعرف إنك صانع المعجزات.

- الممكن والمستحيل فكرتان، الإرادة والعجز أداتان، الإنسان هو مركز الحياة، وأنا الآن هنا لأكسر الجدار الذي صنعته الأيام لي، وأنا هنا لأخترق المستحيل وأصل إلي.

- أعرف إنك تعرف أين الباب وأين المفتاح، لكنك تفتقد البساطة، الخفة، الحياة تافهة، لا شيء يستحق كل هذا

الضغط النفسي الذي أراه في ملامحك، مجرد حركات، أوامر ترسلها من الدماغ إلى الجسد، ويتغير ما لم تتصور إنه سيتغير، هكذا تحدث المعجزة، وهكذا ستفعل بعد قليل، ستفعلها صديقي، أثق بقدرتك، وأنا إلى جانبك، لقد تجاوزت أكبر العوائق، والآن أمامك بضعة دقائق لتنهي هذه المهزلة.

أقترب مني وهمس وهو يشير بإصبعه

- إنها هناك، انظر

نظرت إليها، إنها هي، بلحمها ودمها وعظامها وأفكارها وخيالها، بجثتها، بموتها المختبئ في الزمن، كانت واقفة مع رجل أخرق وفي يديهما كأسي كحول يشربان نخب العدالة القادمة، ضحكتها المعجزة، ضحكتها التي اخترقت كياني منذ أن لمستني كانت تبرق وترعد في المشهد مثل غيمة تلفظ أخر بخارها، وقد تزينت بثوبٍ براق لامع بشكلٍ مدهش يدل على القيامة القادمة، بشكلٍ يثير وحشيتي المكبوتة، جيناتي السفاحة، تخيلتها وأنا أقطع لسانها وأخرج عينيها وأضعهم في فمها وأجبرها على المضغ برؤية سينمائية سادية، تخيلتها وأنا أفتح جمجمتها وأكل دماغها وأنظر إلى ملامح وجهها برؤية تراجيدية كوميدية، تخيلت كيف أمزق بطنها وأخرج أمعائها الغليظة وألف جسدها بها ثم أضعها فوق المشواة

برؤية مشردٍ جائع، تخيلت المشهد وأنا أصفي جسدها من دمها، الدم أحرقه، واللحم أرميه للخنازير، والعظام أرميها للكلاب، برؤية ملحمية خالدة، في وسط هذه التخيلات ناد عليها صديقي نداء القدر للنهاية، انتبهت لوجودنا فحملت جثتها وتخيلاتي ومشت نحونا، كانت لا تزال تبتسم، كأنها تعرف أنها الابتسامة الأخيرة، الوداع الأخير، وأنا أنظر إليها، إلى أضواء جسدها المجلجلة، شعرت إن الكون كله صار في قبضة يدي، وفي الوقت ذاته شعرت إنني المسؤول عن الزمن كله، شعرت أن التاريخ سيتحول بعد قليل من مهزلة إلى معجزة، ومع وصول رائحتها إلى أنفي وقفت كل خلايا جسدي باستعداد وعزم، وكنت لا أزال في الخيال أعض بأسناني لحمها النيء، وأمزق بأصابعي أعضائها، وأرش حولي دمها، كنت أفجر هوسي القهري في رؤية جسدها قرباناً لمعاناة البشرية، وقرباناً لمعاناتي التي تعالت على معاناة البشرية، وما أن وصلت إلينا حتى توقف كل شيء وقوفاً صادماً، لم يتحرك فيَّ شيء بتاتاً، صرت كتلة جمرٍ خامدة، صخرة لا حياة فيها، كنت أريد بكل ما بي من إرادة أن أتحرك ولو حركة بسيطة إلا إن جسدي كان جامداً متصلباً، سلما على بعضهما، ثم نظر صديقي إلي وقال بلهفةٍ فاضحة

- هذا صديقي سربست، صديقي العزيز، إنه معجزة فكرية، ستحبينه بالتأكيد.

نظرت إلي بابتسامة بريئة جذابة، ثم مدت يدها نحوي لتسلم علي، شعرت بغرابة المشهد، كأن ثمة شيء ناقص، معرفة ما أجهلها، صدمت من هول غرابة اللحظات، لاحظت هي تعابير الاستغراب على ملامحي، ارتبكت ابتسامتها لكنا قاومت وحافظت عليها، ابتعدت عنهما خطوتين، نظرت إليهما بحاجبين مرفوعين، همست بسؤالي الأحمق

-لماذا؟!

ثم نظرت إلى السماء وطرحت سؤالي الثاني

-كيف؟!

ثم شعرت إن حجرةً كانت في حلقي سقطت نحو معدتي، نظرت إليهما مرة أخرى، ثم ركضت نحو البحر، نادى خلفي صديقي

- سربست إلى أين؟

- إلى قبر أمي

وصلت إلى البحر وقفزت فيه.

الفصل الخامس والعشرون

كل رغبة، نزوة، لهفة، حاجة، فكرة حالمة؛ تبدأ بنوع من الموسيقى وتنتهي بنوع من الصمت..

الفصل السادس والعشرون

لو ابتعدتَ عنك، عن صراعاتك الطاحنة، ونظرت إلى نفسك من بعيد، بمشاعر أقل هيجاناً، أو بلا مشاعر، لرأيت مجموعة من الحركات التافهة.

الفصل السابع والعشرون

مشى في الغرفة بملل وسأم، ثم نظر إلي، كنت جالساً على الأرض في زاوية الغرفة

- ماذا تفعل؟

- أتحدث معي

ضحك ساخراً

- من الجيد في هكذا جحيم أن تجد أحداً تحدثه عما تفعله الحياة بك، دعني أتشارك معكما الحديث، ما رأيك أن نتحدث عن الحب؟

- لا تتحدث عن الحب أمام شخص يعيش حياة قذرة

اقترب وهمس بشفقة خبيثة

- هل تشعر بالألم؟

نظرت إليه بحيرة ساخرة

- الألم!؟

عانقني الصمت لدقيقة ثم قلت

- "الألم" كلمة لا تتحدث عن معنى الألم ولا عن كيفية حدوثه، مجرد تلميح مبسط عن مفارقة وجودية حادة تتجاوز اللغة والقدرات الفكرية والشعور البيولوجي، لا، لا أشعر به، لكنك ذكرتني به، ذكرتني بتلك الفظاعة التي تتعالى على الذاكرة، أنا أشعر باليأس، يائس من كل شيء، ومن الألم أيضاً.

- من يرى يأسك يستطيع بسهولة التسلط عليك، أنت مفضوح، أشك إنك ترى وجهك في المرأة، إنه فضيحة صارخة، ألا تخشى من السلطة وأنت تحمل كل هذا اليأس؟

- لن أنظر في المرآه، أخشى أن تكبر الفضيحة، ولا أخشى السلطة ما دمت خالياً من الرغبات.

ابتعد عني، مشى وهو يقول بصوتٍ متسلط

- منذ شهور وأنت هنا في مشفى البؤساء، أنت تعرف جيداً، تعرف إن من لا يشفى من اليأس سيُقتل.

نظرت إليه بمكرٍ متمرد

- لن تنجحوا معي، يأسي الخيّر سيقاوم شر الرغبة.

الفصل الثامن والعشرون

كل قصة عظيمة نعيشها في الأخير تصبح تافهة، هي كانت تافهة منذ البداية، ولأننا سقطنا في دوامتها المظلمة لم نرى ذلك...

2021/12/...